

الإيمان بالقضاء والقدر



ما في البيان

فضيلة الشيخ
محمد حسن

مكتبة فياض
للتجارة والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الطبعة الثانية

بطاقة الفهرسة

الفهرسة أثناء النشر

إعداد

الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

حسان محمد

الإيمان بالقضاء والقدر

محمد حسان

ط١- المنصورة

مكتبة فياض للتجارة والتوزيع ٢٠٠٧

٢٩٦ صفحة - ٢٤ سم

١ - القضاء والقدر

أ - العنوان

رقم الإيداع ٤٤٠٨ / ٢٠٠٧

مكتبة

فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي - عزبة عقل

ت: ٢٢٦٧٣٩٨ / ٥٠

الإيمان بالقضاء والقدر

فضيلة الشيخ
محمد حسان

مكتبة فياض
للتجارة والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٠] .

أما بعد :

فلا يخفى الآن على أحد واقع الأمة الأليم !!

فلقد تداعت عليها أمم الأرض ، وصارت قصعة مستباحة للذليل قبل العزيز ، وللضعيف قبل القوي ، وللقاصي قبل الداني .

وصدق فيها قول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود ^(١) من حديث ثوبان :

« يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » .

فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟

قَالَ : « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمُهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ » .

فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا الْوَهْنُ ؟

قَالَ : « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » .

نعم : لقد ذلت الأمة بعد عزة ، وضعفت بعد قوة ، وجهلت بعد علم ، وصارت خلف الأمم بعد أن كانت بالأمس القريب تقود أمم الأرض .

وأصبحت تائهة حائرة بعد أن كانت بالأمس القريب دليلاً للحق

(١) أخرجه أحمد (٢٧٨ / ٥) ، وأبو داود كتاب الملاحم باب في تداعي الأمم على أمة الإسلام

(٤٢٩٧) ، وأبو نعيم في الحلية (١ / ١٨٢) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع

(٨١٨٣) والصحيحة (٩٥٦) .

يهدى الحيارى والتائهين ممن أحرقهم لفح الهاجرة القاتل ، وأرهقهم طول المشي في التيه والظلام .

وما ينبغي للجميع أن يعلموه : أن ما حدث للأمة إنما وقع وفق السنن الربانية التي لا تبدل ولا تتغير ولا تجامل أحداً من الخلق مهما ادّعى لنفسه من مقومات المحابة .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الرعد: ١١]

فنحن مسؤولون ابتداءً وانتهاءً عن كل هزائنا في كل المجالات . ونرفض تمامًا كل محاولة - تبريرية - تحاول أن تجعل من أعدائنا المشجب الوحيد الذي نعلق عليه كل تلك الهزائم والأخطاء .

وقد حذرنا الله تبارك وتعالى من هذا الفهم الخاطئ فقال جل وعلا : ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

نعم ؛ نحن لا نتجاهل حجم المؤامرة الخطيرة التي لم تعد خافية على أحد ، فالأعداء الآن يعلنونها بوضوح وجرأة ؛ لأنها لا تشن الآن على الجزئيات ؛ بل على الأصول والثوابت والكليات .

نحن لا نتجاهل هذا الدور الخطير الذي يقوم به أعداؤنا ، لكن لا

يجوز أبدًا أن نتغافل عن أمراضنا وتقصيرنا نحن في حق ربنا جلّ وعلا .
نعم ، لقد ابتعدنا كثيرًا عن منهج الله ورسوله ﷺ في جانب العقيدة
والعبادة والشريعة والمعاملات والأخلاق .

ولا خلاص لهذه الأمة ولا سعادة لها في الدنيا والآخرة إلا إذا
عادت بكليتها من جديد إلى القرآن والسنة وهي في غاية الحب لله ،
والرضا عن الله ، وهي تردد مع السابقين الصادقين الأولين قولتهم
الخالدة : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

وأول خطوة على الطريق هي : العقيدة وآخر خطوة على
الطريق هي : العقيدة .

فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، تنظم كل شؤون الحياة ، ولا
يقبل الله من قوم شريعتهم إلا إذا صحت عقيدتهم .

يجب أن تكون هذه الخطوة هي الأولى على الطريق حتى لا ننحرف
عن الإسلام وسيلة ونحن نتجه إليه هدفًا .

وحتى لا نضل نردد كلمات فارغة جوفاء ؛ لا نملك أن نحولها إلى
منهج حياة ؛ لأن العقيدة إذا كانت صحيحة صَحَّ كُلُّ شَيْءٍ ، وإذا
فسدت فسد كُلُّ شَيْءٍ .

فالعقيدة إذا رسخت في القلوب ، واستقرت بها النفوس .
وحولتها الأمة إلى واقع حياة سعدت في الدنيا والآخرة .

فهذه العقيدة تحولت الأمة من رعاة الإبل والغنم إلى سادة وقادة
للدول والأمم .

بهذه العقيدة استطاع الجيل القرآني الفريد أن يدمدم على العالم
القديم كله بصولجانه وجبروته ، وبطشه وطغيانه ، وأن يُحيله ركامًا في
ركام ، وترابًا في تراب .

بهذه العقيدة تمكن الجيل القرآني الفريد الذي ربّاه النبي ﷺ أن يُقيم
للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجًا ، فإذا هي بناء شامخ
لا يطاوله بناء ، في فترة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على
الإطلاق .

ولهذا كله كانت العقيدة هي أول ما دعا إليه الرسل جميعًا – عليهم
الصلاة والسلام – فما من رسول إلا ودعا قومه أول ما دعاهم إلى
التوحيد ، وتحقيق العبودية لله عزَّ وجلَّ ، وحذرهم من الشرك بكل
صوره وألوانه .

قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

وفي ظل هذا الواقع الأليم الذي تحياه أمتنا تشتد الحاجة إلى عقيدة التوحيد الصحيحة بشمولها وكمالها .

ومن أصول العقيدة التي لا يتم إيمان العبد إلا بها : « الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ » .

وهذا باب جليلٌ من أبواب الإيمان لمن أحسن فهمه على مراد الله ورسوله ﷺ واستضاء على طول الطريق بالقرآن والسنة بفهم سلف الأمة .

وهذه محاولة متواضعة أُجِّلِي من خلالها حقيقة الإيمان بالقدر مع إطالة النفس في بيان الثمرات الزكية للإيمان بالقدر .

كانت مجموعة من المحاضرات التي ألقيتها في مسجد التوحيد بمدينة المنصورة العامة ضمن دروس العقيدة الأسبوعية ، وأراد الفضلاء أن تكون مكتوبة بعد أن كانت مسموعة ليستمر النفع بها إن شاء الله تعالى .

لا أزعم البتة لنفسي في إعدادها فضلاً ، فالفضل أولاً وآخرًا لله جلّ وعلا ، ثم لعلمائنا الأجلاء وشيوخنا الفضلاء - من أهل السنة - الذين بينوا بجلاء عقيدة الإيمان بالقدر بعيداً عن فلسفة المتفلسفين، وفذلكة المتكلمين ، رانحراف المنحرفين ، وضلال الضالين ، وجراً المتهوكين .

اجتهدت فقط أن أواصل المسير في بستان علمهم ، وعطائهم الماتع ،
لأجمع منه هذه الباقية العطرة النضرة ؛ لأقدمها لأمتي بكل حب في
زمان تحتاج فيه إلى الإيمان بشموله ، سائلًا الحقّ - جلّ وعلا - أن يردّنا
إليه ردًّا جميلًا ، وأن يقرّ أعيننا بنصرة التوحيد وعزّ الموحدين ، وأن
يجعل عملنا كله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يجنبنا الزيغ والزلل ، إنه
ولي ذلك والقادر عليه .

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

القاهرة - شعبان - ١٤٢٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب « الإيمان بالقضاء والقدر »

أقدمها بعد ما نفذت الطبعة الأولى ، بفضل الله - جلّ وعلا .

وأسأل الله تعالى أن ينفع بها الأمة ، وأتضرع إليه سبحانه أن يردّ الأمة إلى العقيدة الصحيحة بشمولها وكماها ، وأن يقر أعيننا بنصرة الإسلام وعزّ الموحدين ، وأسأله سبحانه ألا يجعل حظنا من ديننا قولنا ، وأن يحسن نياتنا وأعمالنا ، وأن يرزقنا الصدق والإخلاص والقبول ، وألا يجرمنا شرف الدعوة إليه ، وكرامة البلاغ عنه ، ودلالة الخلف عليه بحق .

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

القاهرة ١٤٢٧ هـ

مقدمة مهمة في الإيمان بالقدر

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في مقدمة كتابه القيم :

« شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » :

« إن أهمَّ ما يجب معرفته على المكلف النبل ، فضلاً عن الفاضل الجليل . ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل فهو في أسنى المقاصد ، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه ، ومبدأ الدين المبين وختامه ، فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ، ويدور في جميع تصاريفه عليها ، فالعدل قوام الملك ، والحكمة مظهر الحمد ، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة ، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كُلِّ وادٍ وأخذوا في كل طريق ، وتولجوا كل مضيق ، وركبوا كل صعب وذلول ، وقصدوا الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته ، وتكلمت فيه الأمم قديماً وحديثاً ، وساروا للوصول إلى مغزاه سيرةً حثيثاً ، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها ، وصنّف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها .

فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن - أي : بشأن القدر -
ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان فتراه إما مترددًا فيه مع نفسه ،
أو مناظرًا لبني جنسه .

وكلُّ قد اختار لنفسه قولًا لا يعتقد الصواب في سواه ، ولا يرتضي
إلا إياه وكلهم - إلا من تمسك بالوحي - عن طريق الصواب مردود ،
وباب الهدى في وجهه مسدود ، تحسِّي علمًا غير طائل ، وارتوى من
ماء آجن ، قد طاف على أبواب الأفكار ففاز بأخس الآراء والمطالب ،
فرح بما عنده من العلم الذي لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع ، وقدم آراء
من أحسن به الظن على الوحي المنزَّل المشروع والنص المرفوع ،
حيران يأتُم بكل حيران يحسب كلَّ شراب ماءً فهو طول عمره ظمآن ،
يُنَادِي إلى الصواب من مكان بعيد ، أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى
يوم الوعيد ، قد فرح بما عنده من الضلال ، وقنع بأنواع الباطل
وأصناف المحال منعه الكفر الذي اعتقده هدى وما هو ببالغه عن
الهداة المهتدين ، ولسان حاله أو قاله يقول : ﴿ أَهْؤُلَاءِ مَنِ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

ولمَّا كان الكلام في هذا الباب نفيًا وإثباتًا موقوفًا على الخبر عن
أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره فأُسعدُ الناس بالصواب فيه :

من تَلَقَّى ذلك من مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المُتَهَوِّكين ، وتشكيكات المُشَكِّكين ، وتكَلُّفات المُتَنَطِّعين ، واستمطر دَيْم الهداية من كلمات أَعْلَم الخلق برب العالمين ، فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كَفَتْ وَشَفَتْ ، وَجَمَعَتْ وَفَرَّقَتْ ، وَأَوْضَحَتْ وَبَيَّنَتْ ، وَحَلَّتْ مُحَلَّ التفسير والبيان لِمَا تَضَمَّنَهُ القرآن .

ثم تلاه أصحابه من بعده على نهجه المستقيم وطريقه القويم ، فجاءت كلماتهم كافية شافية مختصرة نافعة لِقُرْب العهد ومباشرة التلقى من تلك المشكاة التي هي مظهر كل نور ، ومنبع كل خير ، وأساس كل هدى ، ثم سلك آثارهم التابعون لهم بإحسان ، فافتقروا طريقهم ، وركبوا مناهجهم ، واهتدوا بهداهم ، وَدَعَوْا إلى ما دعوا إليه ، ومضوا على ما كانوا عليه ^(١) .

يقول أبو المظفر السمعاني - فيما حكاه عنه الحافظ ابن حجر - ^(٢) :

« سَبِيلُ المعرفة في هذا الباب : التوفيق إلى الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل ، فَمَنْ عَدَلَ عن التوفيق فيه ضَلَّ وتاه في بحار

(١) كتاب شفاء العليل (٤،٣) طبعة دار التراث .

(٢) فتح الباري (١١/٤٧٧) ط المعرفة .

الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب ؛ لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب .

يقول الإمام الطحاوي - رحمة الله تعالى ^(١) :

« وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسل ؛ والتعمقُ والنظر في ذلك ذريعةُ الخذلان ، وسُلَّمُ الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فاحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة ، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] . »

وقال الإمام أحمد ^(٢) - رحمه الله تعالى :

« ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها ، لم يكن من أهلها ؛ الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها ، لا يقال : لم ، ولا كيف ؟ » .

(١) العقيدة الطحاوية بتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني : (ص: ٤٩، ٥٠) .

(٢) أصول السنة للإمام أحمد (ص ١٠) ط الكيان .

لا يقال : لم رزق الله فلاناً ؟ ولم منع الله عن فلان ؟ وكيف نصر الله فلاناً ؟ وكيف خذل الله فلاناً ؟ وكيف غفر الله لفلان ؟ كيف لم يغفر الله لفلان ؟ وكيف هدى الله فلاناً ؟ وكيف أضل الله فلاناً ؟

قال رحمه الله: إنما هو التصديق والإيمان بها ، ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله ، فقد كفى ذلك وأحكم له ، فعليه الإيمان به والتسليم له .

وهذا الذي قرره أهل العلم في القدر .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى :

« مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب : ما دلَّ عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهو : أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد ، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته ولا يمتنع عليه شيء شاءه . بل هو القادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه .

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها ، وقد قدر الله مقادير الخلائق

قبل أن يخلقهم .

قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون ، وتقديره لها ، وكتابته إياها قبل أن تكون » ^(١) .

وقال أيضًا - رحمه الله تعالى :

« سلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون على أنه لا حُجَّة لأحد على الله في واجب تركه ولا مُحَرَّم فعَلَهُ ؛ بل لله الحُجَّة البالغة على عباده » ^(٢) .

وقال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّي - رحمه الله تعالى :

« مذهبنا في القدر أن نقول : إن الله عزَّ وجلَّ خلق الجنة وخلق النار ولكل واحدة منهما أهلًا . وأقسم بعزته أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ثم خلق آدم - عليه السلام - واستخرج من ظهره كل ذُرِّيَّةٍ هو خَالِقُهَا إلى يوم القيامة ، ثم جعلهم فريقين : فريق في

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٩، ٤٥٠) .

(٢) نفس المصدر (٨/ ٤٥٢) .

الجنة وفريق في السعير .

الخلق كلهم له ، يفعل في خلقه ما يريد ، غير ظالم لهم - جلّ ذكره -
عن أن ينسب ربنا إلى الظلم ، وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك .
وأما ربنا عزّ وجلّ فله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما
وما تحت الثرى وله الدنيا والآخرة جلّ ذكره وتقدست أسماؤه ،
أحب الطاعة من عباده وأمر بها فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم ، ونهى
عن المعاصي وأراد كونها من غير محبة منه لها ، ولا للأمر بها تعالى الله
عز وجل أن يأمر بالفحشاء أو يحبها جلّ ربنا وعزّ أن يجري في ملكه ما
لم يرذ أن يجري أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه قد علم ما الخلق
عاملون قبل أن يخلقهم ، وبعد أن يخلقهم قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا .

قد جرى القلم بأمره عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ بما يكون من برّ
أو فجور . يثني على من عمل بطاعته من عبيده ويضيف العمل إلى
العباد ويعدّهم عليه الجزاء العظيم ، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما
استوجبوا به منه الجزاء : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ [الحديد: ٢١] .

وكذا ذم قومًا عملوا بمعصيته ، وتوعدّهم على العمل به ، وأضاف
العمل إليهم بما عملوا وذلك بمقدور جرى عليهم : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ۚ

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿٩٣﴾ [النحل: ٩٣] ^(١) .

ومن جميل ما قاله الإمام الآجري ^(٢) أيضًا :

« لا يحسن بالمسلمين التنقيب والبحث ؛ لأن القدر سرٌّ من أسرار الله عز وجل ؛ بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به ، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد فيضل عن طريق الحق ».

وبعد هذه الكلمات الجامعات النافعات نستطيع أن نضع بعض القواعد والأصول المهمة بين يدي الحديث عن هذا الركن الكبير من أركان الإيمان بالله جلّ وعلا .

بعض القواعد والأصول المهمة في الإيمان بالقدر :

الأصل الأول :

وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ؛ إذ لا يصح الإيمان بدونه فهو أحد أركان الإيمان .

الأصل الثاني :

وجوب الاعتماد في مبحث الإيمان بالقدر على الكتاب والسنة بفهم

(١) الشريعة للآجري (١٥٠-١٥٢) بتصرف يسير .

(٢) نفس المصدر السابق .

سلف الأمة ، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس ،
فالعقل لا يستطيع بنفسه أن يحقق النجاة في هذا الباب من الانحراف
والضلال ، والذين خاضوا بعقولهم في هذا الميدان الرَّحْب ضلوا
وتاهوا ، والذين أقدموا على السباحة بعقولهم في هذا البحر العميق
غرقوا وضاعوا ، ومنهم من وصل في النهاية إلى التكذيب بالقدر .

وقد يظن البعض أن قولي هذا يُشكِّل حَجْرًا على العقل البشري
المبدع ، الذي صنع القنبلة النووية والهيدروجينية ، وحوَّل العالم إلى
قرية صغيرة عن طريق هذا التقدم المذهل في عالم الاتصالات
والمواصلات .

لا ننكر ما وصل إليه العقل البشري في هذا الجانب المادي الذي
يجب على العقل أن يبدع فيه ، لكن لا مجال للعقل أن يتعرف على الله
جل وعلا بأسماء جلاله وصفاته كماله وعلى أصول هذا الدين إلا
بالعودة إلى وحي الله المعصوم من القرآن والسنة وأن نجعل العقل
أساساً لفهمهما ، لا أن نقدم العقل على النقل .

قال الله تعالى لنبينا ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا
مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ
مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

فعقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، ولو وزن عقله بعقولهم جميعاً لرجحها ، ومع ذلك يخبر الحق تبارك وتعالى أن النبي ﷺ قبل الوحي لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

فإذا كان أعقل أهل الأرض على الإطلاق لم يدر ما الكتاب ولا الإيمان إلا عن طريق الوحي ، فهل يستطيع سفهاء العقول والأحلام أن يهتدوا إلى الحق ، ويعرفوا الإيمان وأصوله وأركانه بمجرد عقولهم بغير نصوص الوحي القرآني والنبوي ؟

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۚ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ ۚ الْأَرْضُ وَتَحِرُّ الْجِبَالُ هُدًى ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠] .

يقول الإمام ابن القيم في كتابه الماتع : « مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة » :

« إن المعارضة بين العقل والنقل هي أصل كل فساد في العالم ، وهي تخالف دعوة الرسل من كل وجه ، فإن الرسل دعوا إلى تقديم الوحي على الآراء والعقول ، وصار خصوم الرسل إلى ضد ذلك ، فأتباع الرسل قدّموا الوحي على الرأي والعقل ، وأتباع إبليس ونوابه قدّموا العقل على النقل » .

ويقول الإمام الشهرستاني - رحمه الله - في كتابه المانع : « الملل والنحل » ^(١) :

« اعلم أن أول شبهة وقعت في الخلق هي : شبهة إبليس - لعنه الله - ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص ، واختياره الهوى في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة التي خلق منها ، وهي النار على المادة التي خلق منها آدم - عليه السلام - وهي الطين وتشعبت عن هذه الشبهة شبهات » .

ومن مائع ما قاله ابن القيم - رحمه الله تعالى ^(٢) :

لا يستقلُّ العقلُ دون هدايةٍ	بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلاً
كالطَّرف دون النور ليس بمدرك	حتى يراه بُكرةً وأصيلاً
فإذا النُّبوةُ لم ينلِكَ ضياؤها	فالعقل لا يهديك قط سبيلاً
نور النبوة مثل نور الشمس	للعين البصيرة فاتخذة دليلاً
طرق الهدى مسدودة إلا على	من أمَّ هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدلت عن الطريق تعمداً	فاعلم بأنك ما أردت وصولاً
يا طالباً درك الهدى بالعقل دون	النقل لن تلقى، لذاك دليلاً

(١) الملل والنحل (١٥ / ١) ط المعرفة.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (٣ / ٩٧٩) ط العاصمة .

فالعقل له ميدانه ومجاله الذي يبدع فيه ويصول ويجول ويستخرج مكنوناته وأسراره ، ويربط بين أسبابه وعقله ، وبين مقدماته ونتائجه ، وللعقل أيضًا أن ينظر في الكون ليتعرف على عظمة الله وقدرته ، وله أن يفهم ويتدبر الوحي الذي أنزل الله على نبيه ﷺ .

لكن لا يجوز أبدًا أن ينصب العقل من نفسه حاكمًا على الوحي ليقبل منه ما يعقل ويرد منه ما لا يعقل ، فهذا مرفوض شرعًا وعقلًا .
وقد أطلت النفس في هذا الأصل لأهميته لا سيما ونحن نعيش عصرًا قُدِّم فيه العقل والعلم على صريح النقل وصحيحه .
الأصل الثالث :

البعد عن الخوض والتعمق في البحث في مسألة القدر .
فأصل القدر سرُّ الله تعالى في خلقه ، لم يُطْلَع عليه ملكًا مقربًا ونبيا مرسلًا .

لذا ؛ فالخوض فيه ذريعة الخذلان وطريق الحرمان وباب الطغيان ؛ لأن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مُرامِهِ ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] .

قال الإمام الطحاوي - رحمه الله ^(١) :

« فمن سأل : لم فعل ؟ فقد ردَّ حكم الكتاب ومن ردَّ حكم الكتاب كان من الكافرين » .

وكما قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى :

لا يقال : لم ، ولا كيف ؟

وعلماء السلف والخلف متفقون على أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالحكمة ، ولا يخلق إلا بالحكمة ، ولا يعطي ولا يمنع إلا بالحكمة ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

ولا ريب أن سبيل النجاة في هذا الطريق الطويل أن يُقبل المؤمن على القرآن والسنة دون مُقرراتٍ عقلية أو أقيسة مادية مسبقة تجعله أسيراً لتلك المقررات .

الأصل الرابع :

التزام الأدب مع الله تعالى ، بالاختصار فقط على ألفاظ القرآن والسنة في هذا الباب خاصة وفي أبواب العقيدة عامة ، والبعد عن استخدام ألفاظ المتفلسفين وعبارات المتكلمين ؛ كألفاظ الجبر

(١) شرح الطحاوية (٢٤٩) ط المكتب الإسلامي .

والاختيار ، فلم تثبت هذه الألفاظ لا في قرآن ولا في سنة ولا على ألسنة سلف الأمة الذين هم أعلم الناس بمراد الله ورسوله ﷺ .

قال عبد الله بن مسعود ^(١) رضي الله عنه : « من كان مُسْتَتًّا فليستَنَّ بمن قد مات ، فإن الحيَّ لا تُؤْمَنُ عليه الفتنة ، أولئك أصحابُ محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيِّه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - طيَّب الله ثراه :

« فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ ، كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع ؛ بل يسميه : علَّة وعاشقًا ومعشوقًا ونحو ذلك ، فهو لاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسنًا .

وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم فيبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك ، لأجل مجرد اللفظ كما لو جاء جيش الكفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم -

(١) ضعفه الشيخ الألباني في المشكاة (١٩٣) ورواه أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - (١/٣٠٥) .

أي : بلبس ثياب الكفار - فدفعهم بلبس ثيابهم خيرٌ من ترك الكفار يحولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب .

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشرعية ، فإنه يقال له : إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة ، وفي كل منهما تلبس وإيهام ، فلا بد من الاستفسار والاستفصال أو الامتناع من إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات « ^(١) » .

✽ أختتم هذه المقدمة المهمة قبل الحديث عن الإيمان بالقدر خيره وشره بسؤال مهم ألا وهو : لماذا نتكلم في القدر بعد هذه المقدمة التي بيّنت لنا خطرها ؟

لا سيما وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قد نهى عن التنازع في القدر ، وكان يغضب لذلك حتى وكأنها فقي في وجنتيه الرُّمَّان - عليه الصلاة والسلام - من شدة الغضب فقال لأصحابه :

« أَهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ » .

ثم قال ﷺ : « عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ » ^(٢) .

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٣١، ٢٣٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء في التشديد في الخوف في القدر رقم (٢١٣٣) =

والجواب: وقف أهل العلم عند هذه الأحاديث واختلفوا على قولين:
القول الأول: هذه الأحاديث ثابتة ظاهرها أن نكف عن الخوض
في القدر.

القول الثاني: هذه الأحاديث لا تثبت ولا تخلوا أسانيدھا من مقال،
فھي ضعيفة لا يحتج بها.

والراجع أن الأحاديث ثابتة يقوي بعضها بعضاً.

والجواب: أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وقد وردت
فيه الآيات، والأحاديث عن النبي ﷺ، فكيف يأتي النهي بعد ذلك
عن الكلام فيه بعد ما ثبتت فيه آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ.

إن هذا دليل قاطع على أن النهي إنما هو منصب على وجه الخوض
فيه على سبيل التنازع والاختلاف والاعتراض على الله تعالى لا على
وجه المعرفة الصادقة.

وفي كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ما يدل على هذا الفهم،

= من حديث أبي هريرة وقال: «وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها» ولكن الحديث له شواهد؛ لذا صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٤٣) وفي السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ.

فالنبي ﷺ يقول : « إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » .

فهل معناه : ألا نتكلَّم عن أبي بكر وعمر ولا نُبَيِّن فضائل الصحابة ، ونلغي من كتاب البخاري وكتب السنن فضائل الصحابة ؟! لا ، فالمراد بـ « أَمْسِكُوا » : أمسكوا عن الخوض فيهم بالباطل ، وأمسكوا عن الخوض فيما قد وقع بينهم :

« إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا » ^(١) .

أي : لا تخوضوا فيه بالباطل على سبيل النزاع والخلاف والاعتراض على الله تعالى ، لكن لا حرج في أن نبحث في القدر بالأدلة الموثقة الكثيرة في القرآن وفي سنة النبي ﷺ ، إذ لو كان الأمر كذلك ما ذكرت هذه الآيات الكثيرة في قرآن الله ، وما ذكرت هذه الأحاديث الكثيرة في سنة رسول الله ﷺ .

أيضاً - كثير من أهل العلم من علماء السلف قد ذكروا القدر

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٦/٢) من حديث ثوبان ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠٢/٧) وقال فيه : « وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف » .

وأخرجه الطبراني (١٩٨/١٠) من حديث عبد الله بن مسعود كما في «مجمع الزوائد» (٢٠٢/٧) وقال الهيثمي : « وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥) لشواهده ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤) .

وبحثوا فيه ، فهل خالف هؤلاء الأئمة أمر رسول الله ﷺ بالنهي عن الحديث في القدر ؟ لا .

قال الشيخ يحيى أبي الخير العمراني ^(١) - رحمه الله - بعد أن ذكر حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه :

« فهذا الخبر وما أشبهه من الأخبار الواردة في النهي عن الخوض في القدر محمول على الكلام الذي نكلمت به القدرية : كيف يخلق الله المعاصي ونهى عنها وعذب عليها .

فهذا الوجه من الكلام هو المنهي عنه ، فأما القول بأن الأشياء كلها بإرادة الله وخلقها وأن أحدا لا يمنعه عن إرادته وما أشبهه من الكلام فليس ينهى عنه » .

وقد ذكر شيخ الإسلام ^(٢) - رحمه الله - مذهب الجبرية والقدرية ، وقال : « وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في ط «المسند» وغيره وبعضه في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو ... الحديث ، ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا ... » .

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة والقدرية الأشرار (١/١٤٢، ١٤٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٢٦) و(١٦/٤١٦) .

قال الإمام الآجري ^(١) - رحمه الله :

فإن سأل سائل عن مذهبنا في القدر ؟

فالجواب في ذلك - قبل أن نخبره بمذهبنا : « أن ننصح السائل ، ونعلمه أنه لا يحسن بالمسلمين التنقيير والبحث عن القدر ؛ لأن القدر سرٌّ من سرِّ الله عز وجل ، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر : واجب على العباد أن يؤمنوا به ، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد ، فيضل عن طريق الحق .

إلى أن قال : ولولا أن الصحابة - رضي الله عنهم - لما بلغهم عن قوم ضلال شردوا عن طريق الحق ، وكذبوا بالقدر ، فردُّوا عليهم قولهم وسبواهم وكفروهم ، وكذلك التابعون لهم بإحسان سبوا من تكلم بالقدر وكذب به ولعنوا ونهوا عن مجالستهم ، وكذلك أئمة المسلمين ينهون عن مجالسة القدرية وعن مناظرتهم ، وبينوا للمسلمين قبيح مذاهبهم ، فلولا أن هؤلاء ردُّوا على القدرية لم يَسَعْ مَنْ بعدهم الكلام على القدر ، بل الإيمان بالقدر : خيره وشره ، واجب قضاء وقدر ، وما قدر يَكُن ، وما لم يقدر لم يكن » .

(١) الشريعة للآجري (١٥٣ ، ١٥٤) ط إحياء التراث .

إذن المراد بالنهي : عدم الخوض والنزاع ، وليس المراد أن نبحث
عن هذا الركن من أركان الإيمان في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ
وعند سلف الأمة ليتقوى الإيمان ، فهذا هو الفهم الصحيح ، والله
تعالى أعلم .





معنى القضاء والقدر

معنى القضاء والقدر

أولاً : معنى القضاء في اللغة :

قال ابن فارس: «القاف والضاد والحرف المعتل «قضى» أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته»^(١).

وقال في النهاية : « القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه »^(٢).

وترجع إليه جميع المعاني في اللغة العربية ، وورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيراً في « القرآن الكريم » ، وكل معاني هذه اللفظة قد تأتي متداخلة أحياناً ، ولكنها في النهاية ترجع إلى الأصل الثابت وهو : إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه إلى جهته .

فمن المعاني التي وردت في القرآن الكريم للقضاء :

* جاء القضاء بمعنى الأمر ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ أي: أمر ، فالقضاء هنا بمعنى الأمر ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أي : وأمر ربك سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له .

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩) .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨) ، وانظر : لسان العرب (١٥/ ١٨٦) .

* وجاء أيضًا القضاء في القرآن بمعنى الإنهاء ؛ قال تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ [الحجر: ٦٦ ، الإسراء: ٤] .

* وجاء القضاء بمعنى الحكم ، قال تعالى : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾

[طه: ٧٢] ، أي : اقض واصنع واحكم ، وافعل ما شئت ، وما وصلت

إليه يدك حكاية عن سحرة فرعون ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ فالقضاء

هنا بمعنى : الحكمة .

* وجاء القضاء أيضًا بمعنى الفراغ ؛ قال تعالى : ﴿ فَقَضَلَهُنَّ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٢] .

قال الإمام الطبري في تفسيره : أي : فرغ من تسويتهن سبع

سموات في يومين .

* وجاء - أيضًا - بمعنى الأداء ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ

مَنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي : إذا أدبتم مناسككم .

* وجاء القضاء أيضًا في القرآن الكريم بمعنى الإعلام أي :

الإخبار ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ الآية

[الإسراء: ٤] أي : أعلمنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم

سيفسدون في الأرض مرتين .

* وجاء القضاء أيضًا بمعنى : الموت ، قال تعالى : ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ

فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴿[القصص: ١٥]﴾ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴿أي : أماته^(١) .

هذه أهم معاني القضاء في اللغة التي وردت في القرآن ، جاء بمعنى : الأمر والإنهاء والحكم والأداء والإعلام والموت ، كل هذه الألفاظ وردت لمعنى قضى .

أما القدر لغة : فالقاف والذال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته^(٢) .

ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضاً ، ومن ذلك حديث الاستخارة : « فَأَقْدُرُهُ وَيَسِّرُهُ لِي »^(٣) .

والقَدَرُ: بتحريك الدال أو تسكينها معناه : الطاقة ، قال الله تعالى : ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَىٰ أَلْوَسِيعِ قَدَرُهُ وَ عَلَىٰ أَلْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] : طاقته ، وفي قراءة : « ومتعوهن على الموسع قَدَرُهُ وعلى المقتر قَدَرُهُ » بالتحريك والتسكين سواء ، يعني : بالطاقة .

ويأتي أيضاً القدر بمعنى التضييق ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾ [الفجر: ١٦] يعني : فضيق عليه ، ومنه قوله تعالى في حق

(١) انظر : القضاء والقدر ومذاهب الناس فيه (ص ٣٤ ، ٣٥) ، ط الوطن .

(٢) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٨٦) ، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب ما جاء في التطوع منى منى رقم (١١٦٦) وانظر أطرافه هناك .

نبه يونس - عليه السلام : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

أي : لن نضيق عليه ، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس - عليه السلام - شك في قدرة الله ، كلا . ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : لن نضيق عليه ، وقدرت الشيء أقدره من التقدير ، ومنه حديث النبي ﷺ :

« فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ » ^(١) من التقدير .

وهكذا يتبين لنا من التعريف اللغوي للقضاء والقدر : أن رابطاً قوياً جداً بينهما وبين التأصيل اللغوي والشرعي كذلك .
أما المعنى الشرعي للقضاء والقدر :

فمعنى القضاء والقدر شرعاً : « هو تقدير الله تعالى الأشياء في القِدم ، وعلمه سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة ، وكتابته لذلك ومشيتها لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقها لها » ^(٢) .

ومراتب القدر أربع ، كما هو ظاهر في التعريف :
المرتبة الأولى : هي العلم .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب قول النبي ﷺ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْهَلَكَ فَصُومُوا » رقم

(١٩٠٦) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال رقم

(١٠٨٠) من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) انظر : شفاء العليل لابن القيم (ص: ٢٩) ، وانظر : العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: ٢١) ،

والقضاء والقدر للمحمود (٣٧-٤٠) .

والمرتبة الثانية : الكتابة .

والمرتبة الثالثة : المشيئة .

أما المرتبة الرابعة : الخلق .

الفرق بين القضاء والقدر :

من أهل العلم من قال : لا فرق بين القضاء والقدر ، فكل منهما يدخل في معنى الآخر ، فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر ، بمعنى : إذا أطلق التعريف على القضاء فإنه يشمل القدر ، وإذا أطلق التعريف على القدر فإنه يشمل القضاء .

والفريق الآخر قال : لا ، هناك فرق بين القضاء والقدر .

فالقضاء : هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل .

أما القدر : فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدرت في الأزل . فalcضاء أشمل وأعم من القدر .

ومنهم من قال : بأن القدر : هو التقدير ، والقضاء : هو التفصيل ، بمعنى : أن القدر : هو التقدير القديم الأزلي ، والقضاء : هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها عز وجل .

وجمع الشيخ ابن عثيمين ^(١) - رحمه الله - فقال : القضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتماعا ، ومترادفان إن افترقا ، يعني : إذا افترقا اجتماعا ، وإذا اجتماعا افترقا ، بمعنى : إذا ذكر القضاء والقدر معًا ، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد ، وإذا أفرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر .

فالتقدير : هو ما قدره الله سبحانه وتعالى في الأزل أن يكون في خلقه التقدير ، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا على القضاء .
أما القضاء إذا ذكر مع القدر ، فكلاهما معنى واحد مشترك .

والراجع : والله أعلم أنه لا فرق بين القضاء والقدر ، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحًا لا دليل لديهم من السنة الصحيحة ، لا سيما وقد اتفقوا جميعًا على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر .

وبعد هذا التفصيل لمعنى القضاء والقدر لغة واصطلاحًا ، تعالوا بنا لتعرف على الأدلة القرآنية والنبوية على وجوب الإيمان بالقدر .

أولاً: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر:

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] أي : قدر

(١) انظر : شرح العقيدة الواسطية (ص ٥٣٩) ، ط دار الثريا .

الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي : قضاء مقضيًا وحكمًا منهيًا مبتوتًا .

وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] .

وقال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠] .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُسِي ﴾ [طه: ٤٠] أي : جاء موسى موافقًا لقدر الله تعالى وإرادته .

وقال عز وجل : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢١-٢٣] .

قال تعالى : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ [عبس: ١٩] .

فهذه الآيات وغيرها كثير جدًا في القرآن تدل على أن الله تبارك وتعالى قد قدر كل شيء .

ثانيًا : الأدلة من السنة النبوية :

أما الأدلة من السنة النبوية فهي كثيرة أيضًا ، وسيأتي تفصيلها في بيان المراتب الأربع في القدر ؛ فلقد دلت السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، قال ﷺ في حديث جبريل :

« الْإِيمَانُ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » ^(١) .

وفي حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه رقم (٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره رقم (٢١٤٤) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون ، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث » ولكن الحديث له شواهد تؤيده ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٤٣) ، وفي السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩) .

والله لو استقرت هذه العقيدة في القلب ما رأينا هذا الواقع الأليم بصفة عامة ، ولكثير من المسلمين بصفة خاصة .

فكل شيء بتقدير الله تبارك وتعالى .

وروى الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم بسند صحيح عن علي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال :

« لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ : يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ » ^(١) .

قال طائوس بن كيسان اليماني - وهو من سادات التابعين - قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : « كل شيء بقدر » . قال : وسمعت عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ » ^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره رقم (٢١٤٥) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب في القدر رقم (٨١) ، وأحمد في المسند (٩٧/١) وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى : « وحديث عليّ هذا رجاله رجال الصحيح » وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند : إسناده صحيح . وصححه الشيخ ناصر في صحيح الترمذي (٢٢٤٦) ، وصحيح الجامع (٧٥٨٤) ..

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر رقم (٢٦٥٥) .

قال القاضي عياض : كما نقل عنه الإمام النووي في شرح مسلم :
 « يُحْتَمَلُ أَنْ الْعَجْزَ هُنَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَهُوَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ . وَقِيلَ : هُوَ تَرَكُ
 مَا يَجِبُ فَعْلُهُ وَالتَّسْوِيفُ بِهِ وَتَأْخِيرُهُ عَنْ وَقْتِهِ ، وَالْكَيْسُ ضِدُّ الْعَجْزِ
 وَهُوَ النِّشَاطُ وَالْحَذَقُ بِالْأُمُورِ ^(١) فَكُلُّ شَيْءٍ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :

« جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَدْرِ فَتَزَلَّ قَوْلُ
 اللَّهِ تَعَالَى :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴾ ^(٢) .
 شَيْءٌ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿ [القمر: ٤٨، ٤٩] » ^(٢) .

كل هذه الأحاديث تدل دلالة صحيحة على وجوب الإيمان بالقدر ،
 وهذه أدلة عامة ، وسيأتي تفصيلها في مراتب الإيمان بالقدر ، وهي
 تنقسم إلى أربع مراتب .



(١) مسلم بشرح النووي (٤٥٦/٨) بتصرف يسير ، ط الحديث .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر رقم (٢٦٥٦) .



مراتب الإيمان بالقدر

مراتب الإيمان بالقدر

المرتبة الأولى : مرتبة العلم .

والمرتبة الثانية : هي مرتبة الكتابة .

والمرتبة الثالثة : هي مرتبة المشيئة .

والمرتبة الرابعة : وهي مرتبة الخلق .

المرتبة الأولى : مرتبة العلم :

وهي : الإيمان بأن الله تبارك وتعالى قد أحاط علمه بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات .

فعلم ما كان سبحانه وتعالى وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء .
فما من جبل على ظهر الأرض إلا ويعلم ما في وعره ، وما من بحر على سطح الأرض إلا ويعلم الله ما في قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع على ظهر الأرض إلا بعلمه ، وما تسقط من ورقة في شجرة أو نخلة على سطح الأرض إلا بعلمه .

فعلم الله شامل بكل شيء ، كامل محيط بكل شيء ، قال تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبا: ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

[النجم: ٣٢]

وقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾

[العنكبوت: ١٠]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]

آيات كثيرة جدًا في القرآن تدل على أن علم الله شامل كامل محيط بكل شيء.

وفي الصحيحين ^(١) وغيرهما من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

«وفي الصحيحين» ^(٢) أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال: سئل

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٣)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٤)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٩).

رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين ، فقال ﷺ :

« الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

وفي الصحيحين ^(١) عن أبي هريرة أنه ﷺ قال :

« مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ . هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا » .

قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا ؟

قال : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

وفي الصحيحين ^(٢) من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه -

قال : قال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيْعَرَفُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؟

قال : « نَعَمْ »

قَالَ : فَلِمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ ؟ قال :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، رقم (١٣٥٨) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب جف القلم عن علم الله ، رقم (٦٥٩٦) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٩) .

« كُلُّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ - أَوْ - لِمَا يُسَّرَ لَهُ » .

اللهم يسرنا لليسرى ولا تيسرنا للعسرى يا رب العالمين .

وفي الصحيحين ^(١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ - وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ - والرجل يبلي بلاءً حسناً في الميدان - فقال ﷺ :

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ » .

فَتَبِعَهُ رَجُلٌ ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ - أي : جرح الرجل - فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَقَالَ بِذُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْرِعًا فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالَ: « وَمَا ذَاكَ؟ » .

قَالَ : قُلْتَ لِفُلَانٍ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ

فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ » .

وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ عَلَى

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقال : فلان شهيد ، رقم (٢٨٩٨) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (١١٢) .

ذَلِكَ ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ :

« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا » .

نسأل الله أن يرزقنا جميعاً حسن الخاتمة .

وفي صحيح مسلم ^(١) من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا ، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبُوهُ طُغْيَانًا وَكُفْرًا » .

وروى اللالكائي والطبراني وابن عدي في «الكمال» ^(٢) وغيرهم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« خَلَقَ اللَّهُ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِنًا ، وَخَلَقَ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦١) .

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٠١٩ ، ١٠٢٠) ، والطبراني في الكبير (١٠ / ٢٢٤) ، وابن عدي في الكامل (٧ / ٤٤٢) ، وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٤ / ٤٤٧) (١٨٣١) وصحيح الجامع (٣٢٣٧) .

أُمِّهِ كَافِرًا» .

وفي صحيح مسلم ^(١) من حديث عائشة قالت : توفي صبي . فقلت طوبى له ، عصفور من عصافير الجنة ، فقال رسول الله ﷺ :

« أَوْ لَا تَذَرِينَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ . فَخَلَقَ لَهُنَّ أَهْلًا ، وَلَهُنَّ أَهْلًا » .

وفي صحيح مسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمْنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمْنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

أعلم أن الحديث يسبب إشكالاً كبيراً لدى بعض المسلمين ، لكن يزول إشكالك إذا فهمت كل هذه الأحاديث من خلال الرواية التي

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦٢) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجل وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥١) .

رواها الإمامان البخاري ومسلم^(١) من حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - وفيها أن النبي ﷺ قد ذكر قيدًا في هذه الرواية يزيل الإشكال ، فقال :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ »

هذا القيد يزيل كل إشكال ، فهو يريد بعمله الثناء عند الناس ولا يريد به وجه رب الناس ، يريد بعمله المخلوقين لا الخالق .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .

لذلك قال ابن القيم في حق المرائي^(٢) : « قلب من تُرائيه بيد من أعرضت عنه » - يعني الله - سبحانه وتعالى - وهو الذي يحول القلب بالحب والبغض ، فإن كان الأمر كذلك فلم توجه قلبك ووجهتك للناس ، فالمرائي خاسر في الدنيا والآخرة ؛ لأن المعاقبة بنقيض القصد ، أو بضد القصد ثابتة شرعًا وقدرًا .

يعني : من يريد بعمله الثناء عند الناس سيذمه نفس الناس الذين أراد عندهم الثناء ، قال ﷺ :

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٥٨) ط مكتبة نزار.

(٢) سبق تخرجه .

« مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ » ^(١) .

من أراد السمعة والشهرة بالباطل سمع الله به ، ومن أراد وجه الله تعالى بعمله جعل الله عز وجل له الثناء الحسن على الألسنة ، كما في صحيح مسلم ^(٢) عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟

قال : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ » .

فالمرائي لا ينال ما يريده لا في الدنيا ولا في الآخرة .

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] .

وقال ربنا سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال ربُّنا سبحانه في الحديث القدسي الجليل :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الرياء والسمعة رقم (٦٤٩٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٧) من حديث جندب وهذا لفظ البخاري .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره رقم (٢٦٤٢) .

« أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ » ^(١) .

وفي لفظ ابن ماجه : « فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » ^(٢) .

وقد يستطيع الإنسان العزف على وتر الرياء شهرًا أو شهرين أو عامًا أو عامين ، لكنه لا يمكن أبدًا أن يجيد العزف على وتر الرياء والنفاق طول عمره لابد أن يفضحه الله كما قال لنبينا ﷺ :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٠] .

يأبى الله إلا أن يفضح المرائين والمنافقين على صفحات وجوههم وفي زلات ألسنتهم وفي كلمات أقلامهم ، نسأل الله أن يرزقنا الصدق في القول والعمل .

وفي صحيح مسلم ^(٣) عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة ، وفي الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، وصححه الألباني - رحمه الله - في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣١) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥٠) .

قَالَ : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْذَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا آتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ، وَثَبَّتَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟
فَقُلْتُ - أَي : أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ .

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا ؟
قَالَ : فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَرَعَا شَدِيدًا وَقُلْتُ : كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ وَمَلَكُ يَدِهِ . فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ .
فَقَالَ لِي - أَي : عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : يَرْحَمَكَ اللَّهُ ، إِنِّي لَمْ أَرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَخْزَرَ عَقْلَكَ .

إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْذَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا آتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَّتَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ :

« لَا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ٨ »

وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - ^(١) عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : كُنَّا فِي جَنَازَةِ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، وَمَعَهُ مَخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمَخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ :

« مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ » .

قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَفَلَا نَمُكُّثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ ؟

فَقَالَ : « مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » .

فَقَالَ : « اْعْمَلُوا فِكُلُّ مُيَسَّرٌ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴾

[الليل: ٥-٧]

وفي الصحيحين ^(٢) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر وعود أصحابه حوله (١٣٦٢) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ رقم (٦٦١٢) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره رقم (٢٦٥٧) .

ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ :

« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ » .

وفي لفظٍ : « مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَرَزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ ، وَزَنَا اللِّسَانَ النُّطْقُ ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » .

وفي «مسند أحمد» و«سنن الترمذي»^(١) عن ابن عباس - رضي الله

عنها - قال : قال لي رسول الله ﷺ :

« يَا غُلَامُ ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » .

أي : مما كتبه الله وقدره وقضاه الرب سبحانه وتعالى .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، باب ٥٩ رقم (٢٥١٦) وقال :

« حديث حسن صحيح » ، وأحمد في المسند (١/٢٩٣، ٣٠٣) .

وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم

(٧٩٥٧) .

وروى الترمذي وأحمد وابن حبان وغيرهم ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ . »

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ وَالْمَعْتُوهُ وَالْمَوْلُودُ ، قَالَ : يَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ : لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ » ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ [طه: ١٣٤] « وَيَقُولُ الْمَعْتُوهُ : لَمْ يَجْعَلْ لِي عَقْلاً أَعْقِلُ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا » قَالَ : « وَيَقُولُ الْمَوْلُودُ : لَمْ أَبْلُغِ الْحُلُمَ » قَالَ : « فَتَرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ ، فَيُقَالُ : رُدُّهَا - أَوْ ادْخُلُهَا » قَالَ : « فَيَرُدُّهَا أَوْ يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَعِيدًا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلُ » قَالَ : « وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢) وقال : « حديث حسن » ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٧٦/٢ ، ١٩٧) ، وابن حبان (٦١٦٩) كما في الإحسان ، والحاكم (٤٣٤/٢) ، (٣١ ، ٣٠/١) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٣٤) ، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠٧٩) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٣ ، ٢٤٤) وغيرهم ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٧٦) ، وصحيح الجامع (١٧٦٤) .

عَلَيْهِ شَقِيًّا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلُ « قَالَ : « فَيَقُولُ : إِيَّايَ عَصَيْتُمْ ، فَكَيْفَ بُرْسِلِي بِالْغَيْبِ أَتُكْمُ » ^(١) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ : « تَذَرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ ؟ » فَقُلْنَا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِلَّا أَنْ نُخْبِرَنَا .

فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى : « هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا » .

ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ : « هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا » .

فَقَالَ أَصْحَابُهُ ﷺ : فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ؟

فَقَالَ ﷺ : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلٍ

(١) أخرجه ابن جرير في « التفسير » (٢٣٨ / ١٦) ، والبزار (٢١٧٦) ، واللالكائي (١٠٧٦) ، وضعف سنده الهيثمي في « المجمع » (٢١٦ / ٧) وله شواهد يتقوى بها ؛ لذا صححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٤٣٤ ، ٢٤٦٨) .

أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُجْتَمَ لَهُ بِعَمَلٍ
أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ .

ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ : « فَرَّغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ ، فَرِيقٌ فِي
الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » . الحديث رواه الترمذي وأحمد وغيرهما
بسند صحيح ^(١) .

وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذى» :

« والظاهر من الإشارة أنهما كتابان حسيان وقيل : تمثيل
واستحضار للمعنى الدقيق الخفي في مشاهدة السامع حتى كأنه ينظر
إليه رأي العين ولا يستبعد إجراؤه على الحقيقة ، فإن الله قادر على كل
شيء » ^(٢) .

المرتبة الثانية : الكتابة :

ويدخل فيها خمسة تقادير :

التقدير الأول : هو التقدير الأزلي قبل خلق السموات والأرض ،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار رقم
(٢١٤١) وقال : « حديث حسن صحيح غريب » ، وأحمد في المسند وهذا لفظه (١٦٧/٢) .
وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وصححه الشيخ ناصر - رحمه الله - في الصحيحة
(٨٤٨) وفي صحيح الجامع برقم (٨٨) .

(٢) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي (٦/٢٩٢ ، ٢٩٣) بتصرف بسيط ، ط دار الكتب
العلمية .

فالله رازق قبل أن يخلق المرزوقين ، وعالم قبل أن يخلق الخلق الذي يعلم أحوالهم أجمعين .

قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

[التوبة: ٥١]

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: ٧٥] .

وقال المصطفى ﷺ - كما في صحيح البخاري ^(١) عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ : « اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ » .

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ رقم (٣١٩٠) . وانظر أطرافه هناك .

قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا - مَرَّتَيْنِ - ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« أَقْبِلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو نَمِيمٍ » .

قَالُوا : قَدْ قَبَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالُوا : جِئْنَا نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ .

قَالَ ﷺ : « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى السَّمَاءِ ،
وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » .

فَنَادَى مُنَادٍ : ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْخُصَيْنِ ، فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ
يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا .

الشاهد من الحديث : « وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ » هذا التقدير
تقدير أزلي .

وروى الإمام مسلم^(١) في « صحيحه » من حديث عبد الله بن
عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال :

« كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى السَّمَاءِ » .

والمراد : هو تحديد وقت الكتابة وليس أصل القدر فهو أزلي .

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليها السلام - رقم (٢٦٥٣) .

وفي الصحيحين ^(١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَام - عِنْدَ رَبِّهِمَا ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ، قَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَابِحَ فِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا ، فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ عَامًا ، قَالَ آدَمُ : فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١] قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْلِقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ » .

قال رسول الله ﷺ : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » .

وفي سنن أبي داود ^(٢) بسند حسن : قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ :

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعد رقم (٣٤٠٩) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - رقم (٢٦٥٢) واللفظ له .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، والترمذي بنحوه كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة : ﴿ رَّبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٣٣١٩) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وصححه الشيخ ناصر في صحيح الترمذي (٢٦٤٥) وقال : إسناده حسن ، وأحمد في المسند (٣١٧ / ٥) . والحديث صحيح بشواهده .

يَا بُنَيَّ ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : رَبِّ ، وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » .

يَا بُنَيَّ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي » .

وفي صحيح مسلم ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :
قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ : اللَّهُمَّ أَمْتَعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
وَبِأَيِّ ، أَبِي سُفْيَانَ ، وَبِأَخِي ، مُعَاوِيَةَ . قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « قَدْ سَأَلْتَ
اللَّهَ لِأَجَالٍ مَضْرُوبَةٍ ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ . وَفِي لَفْظٍ : « وَأَثَارٍ مُوْطُوءَةٍ » -
وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ »

قال النووي - رحمه الله ^(٢) :

« وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٢٦٦٣) .

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/٤٦٦) ط الحديث .

قدره الله تعالى وعلمه في الأزل ، فيستحيل زيادتها ونقصانها حقيقة عن ذلك » .

وفي صحيح البخاري ^(١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي رَجُلٌ شَابٌّ وَأَنَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي الْعَنَتَ ، وَلَا أَجِدُ مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ النِّسَاءَ ، فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَاخْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرِّ » .

اختصر : من الخضاء ، وهو قطع الأنثيين ليقطع الرجل بذلك شهوته تجاه النساء ، وقد روى البخاري هذا الحديث في كتاب النكاح في باب ما يكره من التبتل والخضاء .

قال الحافظ ابن حجر ^(٢) :

والحديث ليس إذناً بالخضاء ؛ بل فيه إشارة على النهي عن ذلك ، كأنه قال له ﷺ إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله فلا فائدة من الخضاء .

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخضاء رقم (٥٠٧٦) .

(٢) فتح الباري (١٤٥/٩) ط الحديث .

وروى البخاري ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« لَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ صَخْفَتَهَا وَلِتُنْكِحَ ، فَإِنَّ لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا » .

قال ابن عبد البر - رحمه الله ^(٢) :

« هذا الحديث من أحسن أحاديث القدر عند أهل العلم ، لما دلَّ عليه من أن الزوج لو أجابها وطلق من تظن أنها تزاحمها في رزقها ، فإنه لا يحصل لها من ذلك إلا ما كتب الله لها سواء أجابها أو لم يجبها ، وهو كقول الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] .

فكل ما كتب على ابن آدم وجرى به القلم مدركه لا محالة » .

التقدير الثاني : تقدير يوم الميثاق :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدرًا مقدرًا (٦٦٠١) ، وفي النكاح (٥١٥٢) .

(٢) فتح الباري (٥٨١/١١) ط الحديث .

يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا
مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

[الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]

وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال في الآية السابقة :

جمعهم فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ
عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ^ط قَالُوا
بَلَىٰ ﴿ قال : إني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد
عليكم أباكم آدم - عليه السلام - أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا .

واعلموا أن لا إله غيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً ، إني
سأرسل لكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي .
قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ولا رب غيرك وأقروا بذلك « (١) .

هذا الميثاق كتب الله عز وجل فيه برحمته وعدله أنه لن يؤخذ الخلق
بإقرارهم في هذا اليوم مع أن الخلق جميعاً قد أقروا في هذا اليوم

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (١٣٥/٥) ، وابن جرير (١١٥/٩) رقم
(١٥٣٧٤) ، وابن منده في الرد على الجهمية (٣٠) ، والحاكم (٣٢٣/٢) وقال : صحيح
الإسناد ووافقه الذهبي . وعبد بن حميد وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦٠/٣) وحسنه
الشيخ الألباني في المشكاة (٤٤/١) .

بالوحدانية وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا وأشهد عليهم
السموات والأرض فشهدتا ، ومع ذلك لم يؤاخذهم الله بهذا الإقرار ؛
لأنهم حينما نزلوا إلى الأرض اجتالتهم الشياطين فأنستهم هذا الميثاق
فوعده الله سبحانه وتعالى ألا يعذب منهم أحداً إلا بعد أن يقيم عليهم
الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

وروى البخاري ومسلم ^(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

« يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا
وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ
أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لَا تُشْرِكَ وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ ،
فَأَبَيْتَ إِلَّا الشُّرْكَ » .

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله ^(٢) :

« قوله : « وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ » فيه إشارة إلى قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) وانظر طرفاه
هناك ، ومسلم واللفظ له كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب طلب الكافر الفداء بملء
الأرض ذهباً (٢٨٠٥) .

(٢) فتح الباري (٤٤٨/٦) ط الحديث .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] «

وقد سبق ^(١) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ . »

وروى أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم ^(٢) عن عبد الله بن قتادة السلمي - رضي الله عنه - قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخُلُقَ مِنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ : هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي . »

قَالَ : فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ ؟

(١) سبق تخريجه في مرتبة العلم .

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦/٤) ، وابن حبان (٣٣٨) ، واللالكائي (١٠٨١) ، والحاكم (٣١/١) وصححه ، والفريابي في القدر (٢٥، ٢٦) ، وابن سعد في الطبقات (٣٠/١) ، (٤١٧/٧) ، وأعله البخاري وابن السكن كما في الإصابة (٣١٨/٦) ، وابن عبد البر في الاستيعاب (١٤٥٠) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٤٨) .

قَالَ : « عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ » .

التقدير الثالث : التقدير العمري :

عند خلق النطف في الأرحام ؛ كما قال الله تعالى :

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ^ط وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ^ط فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

[النجم : ٣٢]

وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ^ج وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ^ج إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّا ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

[فاطر : ١١]

وقال النبي ﷺ كما في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال :

حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ:

« إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكِتَابِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » ^(١).

والقيد - كما ذكرت في حديث سهل : « فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ » ^(٢).

وفي الصحيحين ^(٣) من حديث أنس أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا ، يَقُولُ : يَا رَبِّ نُطْفَةٌ ، يَا رَبِّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة رقم (٣٢٠٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب (١) رقم (٦٥٩٥) ، وانظر : (٣١٨) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي ، في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٦) .

عَلَقَةً ، يَا رَبِّ مُضْغَةً ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ : أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى ؟
شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ .»

وفي صحيح مسلم ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :
الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، فَأَتَى رَجُلًا مِنْ
أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَالُ لَهُ : حُذِيفَةُ بْنُ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ فَحَدَّثَهُ
بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ ؟ فَقَالَ
لَهُ الرَّجُلُ : أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ ! فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا ،
وَخَلَقَ سَمْعَهَا ، وَبَصَرَهَا ، وَجِلْدَهَا ، وَلَحْمَهَا ، وَعِظَامَهَا ، ثُمَّ قَالَ : يَا
رَبِّ ، أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا
رَبِّ ، أَجَلُهُ ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا رَبِّ ،
رِزْقُهُ ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يُخْرِجُ الْمَلَكُ
بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ .»

التقدير الرابع : التقدير الحولي :

في ليلة القدر ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله
وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٥) .

مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ [الدخان : ٣-٥].

قال مجاهد : ليلة القدر : ليلة الحكم .

وقال ابن عباس - رضي الله عنه : « يُكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال : يحج فلان وفلان » .

وقال مقاتل : « يقدر الله تعالى في ليلة القدر أمر السنة في أرضه وفي عباده إلى السنة القابلة » .

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية قوله : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى » ^(١) .

وعن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك : « في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها » ^(٢) .

التقدير الخامس : التقدير اليومي :

والآثار في ذلك عن الصحابة والأئمة كثيرة جدًا .

(١) انظر : هذه الأقوال في شفاء العليل (ص: ٥٩) ، ط دار الحديث .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٠) ط - دار الحديث ، ومعارج القبول (٢/ ٧٩٧) ، ط المكتبة التجارية ونزار مصطفى الباز .

قال تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] .

فالتقدير اليومي : هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيها سبق . قال تعالى : ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] .

روى ابن جرير بسند حسن عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال :

قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

فقلنا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا ذَاكَ الشَّأْنُ ؟

قَالَ ﷺ : «أَنْ يَغْفَرَ ذَنْبًا ، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا ، وَيَرْفَعُ قَوْمًا ، وَيَضَعُ آخَرِينَ» ^(١) .

قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] .

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٧٩) ، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٣) ، وقال الهيثمي : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم» المجمع (٧/ ١٢٠) ، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» (٣٠١) .

وروى البخاري تعليقاً^(١) موقوفاً على أبي الدرداء - ومنهم من رفعه^(٢) ، لكن الموقوف أصح ، قال الله عز وجل : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال :

« مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا ، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا ، وَيَرْفَعَ قَوْمًا ، وَيُخَفِّضَ آخَرِينَ » .

وقال الأعمش عن مجاهد ، عن أبيه ، عن عبيد بن عمير ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال : « من شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً ، أو يشفي سقيماً » .

وقال مجاهد : « هو كل يوم يجيب داعياً ، ويكشف كرباً ، ويجيب مضطراً ، ويغفر ذنباً » .

(١) البخاري في كتاب التفسير باب سورة الرحمن ، انظر : الفتح (٨ / ٧٦٢) ، وقال الحافظ في الفتح : وصله المصنف في « التاريخ » ، وابن حبان وابن ماجه وابن أبي عاصم والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعاً ، وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفاً ، وللمرفوع شاهد عن ابن عمر ، أخرجه البزار وآخر عن عبد الله بن منيب ، أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبراني . ١ هـ . انظر : صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية رقم (٢٠٢) وقال البوصيري في الزوائد : إسناده حسن ، وابن حبان في صحيحه في كتاب التفسير ، باب سورة الرحمن رقم (١٧٦٣) موارد ، وابن أبي عاصم في السنة (٣٠١) وصححه الشيخ الألباني هناك .

وقال قتادة : « لا يستغني عنه أهل السموات والأرض ، يُحيى حيًّا ، ويميت ميتًا ، ويربي صغيرًا ، ويفك أسيرًا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم ومنتهى شكواهم »^(١) .

وقال الحسين بن فضيل : « هو سوق المقادير إلى المواقيت » .

وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية : « كل يوم له إلى العبد برٌّ جديد » .

وذكر البغوي - رحمه الله تعالى - قول المفسرين : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فقال : « من شأنه أن يحيى ويميت ، ويخلق ويرزق ، ويُعز قوماً ويذل قوماً ، ويشفي مريضاً ، ويفك عانيًا ، ويفرج مكروبًا ، ويجيب داعيًا ، ويعطي سائلًا ، ويغفر ذنبًا إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء »^(٢) .

وجملة القول في ذلك : أن التقدير اليومي هو سوق المقدور على العبد وإنفاذه فيه في الوقت الذي سبق أن يناله فيه لا يتقدمه ولا

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٥) ، ط دار الحديث ، ومعارج القبول (٢/ ٧٩٨) وما بعده ، ط نزار مصطفى .

(٢) انظر : تفسير الخازن والبغوي (٦/ ٨٠ ، ٨١) ، ط دار الكتب العلمية ، وانظر : كثيرًا من الآثار السابقة في معارج القبول (٢/ ٧٩٨ ، ٧٩٩) وما بعده ، ط نزار الباز .

يتأخره ، في الوقت الذي شاء الله تعالى وفي المكان الذي شاء لا يتقدم ولا يتأخر .

وهكذا فالتقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي ، والتقدير الحولي تفصيل من التقدير العمري أو الأجلي ، والتقدير العمري تفصيل من التقدير الذي كتب في يوم الميثاق ، وهذا التقدير هو تفصيل من التقدير الأزلي الذي كتبه الله عز وجل يوم خلق القلم .

هذا بالنسبة للأقدار في الدنيا ومنتهى المقادير في الآخرة إلى علم الله تبارك وتعالى ، وهكذا انتهت الأوائل إلى أوليته ، وانتهت الأواخر إلى آخريته قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] .

أسأل الله أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره ، وأن يرزقنا الرضا والتسليم والاستسلام ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

المرتبة الثالثة : مرتبة الإرادة والمشيئة .

إن الله جل وعلا عَلِمَ وأَرَادَ وشَاءَ ، فما شاء الله تعالى أن يكون فهو كائن بإرادته ومشيبته .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

[يس: ٨٢]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ [الأنعام: ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ

مِنِّي لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣] .

والآيات في المشيئة والإرادة كثيرة جدًا .

فالسبب في عدم وجود الشيء هو عدم مشيئته وإرادته لذلك ، لا لعجزه عن فعل ذلك ، ولا لعدم قدرته على فعل ذلك تنزه تبارك وتعالى عن ذلك : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

[يس: ٨٢]

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ^ج

إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ^ط بِيَدِكَ الْخَيْرُ ^ط

إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

فهذه المرتبة من مراتب الإيمان بالقدر تبين أن كل ما يجري في الكون بمشيئة الله وإرادته . فما من شيء في الكون يقع إلا بمشيئة الله وإرادته .. لا تسقط ورقة من شجرة على وجه الأرض إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا تضع أنثى على وجه الأرض ذكرًا أو أنثى إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا تسود دولة ولا تزول دولة ولا يسود حاكم ولا يزول حاكم إلا بإرادة الله ومشيئته .

هذه القاعدة البيانية تؤكد قاعدة إيمانية عقدية ألا وهي : الإيمان بمرتبة الإرادة والمشيئة كمرتبة ثالثة من مراتب الإيمان بالقدر . فلا يقع شيء في كون الله إلا بمشيئته وإرادته . فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءِ اتَّكُم ﴾ [المائدة: ٤٨] .

قال الله تعالى لنبينا ﷺ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

[آل عمران: ٦]

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] اللهم اشرح صدورنا للإسلام .

والآيات في هذا الباب كثيرة ، والله الحمد .

ولقد بوب الإمام البخاريُّ - رحمه الله تعالى - في كتاب التوحيد باباً من أفضه أبواب هذا الكتاب فقال : «باب في المشيئة والإرادة» .
انظر إلى فقه الترجمة !! وعلماءنا يقولون : فقه البخاري في تراجمه ، فالترجمة وحدها عند الإمام تأخذ منها فقهاً كثيراً قبل أن ترجع إلى تفصيل الباب .

فهو يثبت بهذه الترجمة مشيئة وإرادة الله تبارك وتعالى ، ويروي في هذا الباب حديثاً عن أبي موسى الأشعري - والحديث رواه مسلم أيضاً - أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ :
« اشفَعُوا تُؤَجَّرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ » ^(١) .

لكن الشفاعة لن تيسر ولن تعسر إلا بمشيئة الله .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة رقم (٧٤٧٦) ، وله أطراف انظرها رقم (١٤٣٢) ، ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام رقم (٢٦٢٧) .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » .

ثم قال رسول الله ﷺ :

« اللَّهُمَّ ! مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ! صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » ^(١) .

الشاهد قوله ﷺ : « كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » .

فالقلوب بيد الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك ما سمي القلب قلباً إلا لكثرة تقلبه ﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] .

اللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، اللهم كما شرحت صدورنا للإسلام وهديتنا للإيمان وزيتته في قلوبنا فلا تحرمنا منه حتى نلقاك يا أرحم الراحمين .

ما سُمِّي القلب قلباً إلا لكثرة تقلبه ، فالإنسان يمسي على حال

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤) .

ويصبح على حال ، قال ﷺ كما في صحيح مسلم ^(١) من حديث حذيفة - رضي الله عنه :

« تُعَرَّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ » .

اللهم ارزقنا هذه القلوب التقية النقية البيضاء التي لا تضرها الفتن ما دامت السموات والأرض برحمتك يا أرحم الراحمين .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » ^(٢) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

« لَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة من القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) .

أَرْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ ، وَلِيَعْزِمَ مَسْأَلَتُهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرَهُ لَهُ » ^(١) .

ففيه إثبات لمشيئة الله تعالى فهو الغفور الرحيم الرزاق إذا شاء ، وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا مكره له .

والحديث فيه الحث كما هو واضح على العزم في المسألة والجزم فيها دون ضعف أو تعليق على المشيئة ، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة ؛ لأنه لا يتحقق استعماله إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه والله سبحانه وتعالى لا مكره له كما قال النبي ﷺ ^(٢) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - كما في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة والنسائي والطبراني وغيرهم بسند صححه الألباني - رحمه الله تعالى - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ .

قال : « أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدًا ؟ ! بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة رقم (٧٤٧٧) ، وانظر طرفه رقم (٦٣٣٩) .

(٢) انظر : شرح النووي على مسلم وفتح الباري لابن حجر .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١ / ٢١٤) ، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة ، باب النهي أن يقال : ما شاء الله وشاء فلان رقم (١٠٨٢٥ / ١) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، باب كيف الاستثناء في المخاطبة رقم (٦٦٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٦٧٤٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند : إسناده صحيح ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة =

وفي لفظٍ : « أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَدْلًا ؟ ! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » .

والحديث دال على مشيئة الله تبارك وتعالى ، وأن الله عز وجل له المشيئة المطلقة ، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله ، ولو كانت مشيئة النبي ﷺ فمشيئة النبي ﷺ تابعة لمشيئة الله عز وجل وليست مستقلة أو منفردة عنها « أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نَدًا ؟ ! بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » .

فقد نهى النبي ﷺ الرجل أن يقرن مشيئة الله بمشيئة الرسول حيث عطفها بالواو التي هي لمطلق الجمع من غير ترتيب ولا تعقيب فنهى النبي ﷺ عن ذلك ؛ لأن النبي ﷺ كغيره من البشر . الكل خاضع لمشيئة الله تبارك وتعالى ، ومشيئة البشر تابعة لرب العزة جل جلاله .

وفي الصحيحين ^(١) من حديث معاوية – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال :

« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي وَلَنْ

= (١٣٩، ١٠٩٣) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين رقم (٧١) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة رقم (١٠٣٧) ، وفي كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ » رقم (١٠٣٧) .

تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ .

اللهم فقهننا في ديننا وارزقنا الإخلاص في القول والعمل .
الأمر فيه نعمتان :

النعمة الأولى : هي إرادة الله الخير لك .

والنعمة الثانية : هي أن يفقهك في الدين ؛ لذا قال أحد أهل العلم :
أي النعمتين أشكرك على أن أردت بي الخير ، أو على أن فقهتني في الدين !! .

والحديث إثبات لمرتبة الإرادة والمشيئة ، وأن الأمور كلها تجري بإرادة الله ومشيتته تبارك وتعالى ، وانظر البخاري فهناك المزيد من الأحاديث .

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق :

وهذه المرتبة زل فيها كثير من الفرق كالمعتزلة والقدرية الجبرية ، وأنا لا أحب أن أقف مع تفصيل أقوال الفرق في هذه المسألة حتى لا أشوش على أحد من المسلمين ، وإنما يعني أن أوصل المنهج الحق فحسب .

ومرتبة الخلق هي : أن الله تعالى خالق كل شيء ، ومن ذلك أفعال

العباد فلا يقع في هذا الكون شيءٌ إلا وهو خالقه .

والأدلة على هذه المرتبة من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة كثيرة :

قال الله تعالى - حكاية عن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عندما حطّم الأصنام وخاطب قومه : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [الصفات: ٩٥، ٩٦] . إثبات لمرتبة الخلق ، فالله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء ومن هذا أفعال العباد .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات: ٩٦] .

وقال ﷺ - كما في حديث حذيفة - رضي الله عنه - الذي رواه البخاري في كتابه خلق أفعال العباد : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ »^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] .

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٧٣) ، وابن أبي عاصم في السنة (٣٥٧، ٣٥٨) ، وصححه الحاكم في المستدرک (٣١ / ١) ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٣٧، ٥٧٠، ٨٢٥) كلهم من حديث حذيفة مرفوعاً ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٣٧) .

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [غافر: ٦٢].

وهذه نصوص واضحة على مرتبة الخلق .

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

[الرعد: ١٦]

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

[الزمر: ٦٢]

وقال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

[الحجرات: ٧]

والشاهد :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ .

« فهو سبحانه الذي جعل الإيمان محبوبًا ، أو أحب الأشياء إليكم ، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم ، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهًا عندكم ، وذلك بما

أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله ، فالفاعل في كل ذلك : هو الله تبارك وتعالى ، كما قال صاحب فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان - رحمه الله تعالى - وابن السعدي في تفسيره ، وكما قال ابن القيم في كتابه القيم شفاء العليل ^(١) .

وهناك آيات أخرى كثيرة جدًا في القرآن تدل على أن الله تعالى هو الهادي المضل ، والمؤيد لعباده المؤمنين والهازم لأعدائهم ، وهو المضحك والمبكي ، وهو المميت والمحيي ، وكل ذلك دليل على أن الله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء .

وقد أورد الحافظ ابن كثير ^(٢) هذا الدعاء في تفسيره لآية الحجرات السابقة : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ ﷺ :

« اسْتَوْوَا حَتَّى أَتْنِي عَلَى رَبِّي » ، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضَلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا

(١) القضاء والقدر للمحمود (٧٩) .

(٢) انظر : ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٢١٢/٤) .

مَنْعَتْ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا
 قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ،
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي
 أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعِيْلَةِ - أي يوم الفقر - وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللَّهُمَّ
 إِنِّي عَائِدُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أُعْطِينَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا
 الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهِ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ،
 وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَخِينَا مُسْلِمِينَ ، وَآلَحِقْنَا
 بِالصَّالِحِينَ ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ
 يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ
 وَعَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» ، والحاكم في
 «المستدرک» ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ^(١) وغيرهم ،
 وصححه الألباني - رحمه الله تعالى .

فإنك ترى في هذا الحديث الإقرار الواضح بأن الله تعالى هو الفاعل

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٤) ، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة ،
 باب الاستنصار عند اللقاء رقم (٦/ ١٠٤٤٥) ، والحاكم في المستدرک (١/ ٥٠٦ ، ٥٠٧)
 وصححه وأقره الذهبي ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢١ ، ١٢٢) وقال :
 « رجال أحمد رجال الصحيح » ، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٩٩) ، وقال الألباني -
 رحمه الله : صحيح ، وصححه في فقه السيرة (ص ٢٦٤) .

لكل هذه الأمور التي طلبها البشير النذير ﷺ .

وأيضاً تدبر هذا الدعاء النبوي عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه -
الذي كان يقول : لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالنُّجْبَنِ
وَالْبُخْلِ وَالنَّهَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ
خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا » . والحديث رواه الإمام مسلم ^(١)
في باب الذكر والدعاء .

والشاهد : هو قول النبي ﷺ :

« اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا » .

الفاعل لهذا الذي يطلب منه رسول الله ﷺ هو الله سبحانه وتعالى ،
قال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فَأَهْمَهَا
جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ [الشمس : ٧ ، ٨] . أي : فالخلق لله ، والإنسان قادر
على سلوك أيها شاء ومخير فيه .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل
رقم (٢٧٢٢) .

وذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» : ^(١) قول ابن زيد في معنى الآية :
 « جعل ذلك فيها - أي : في النفس - بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه
 إياها الفجور » اللهم لا تخذلنا يا رب .

وعن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال : كتب معاوية إلى المغيرة :
 اكتب إلى ما سمعته من رسول الله ﷺ يقوله خلف الصلاة ، فأملى
 على المغيرة قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ خَلْفَ الصَّلَاةِ :
 « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ ، وَلَا
 مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » ^(٢) .

الشاهد : هو قول النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ وَلَا مُعْطِيَ
 لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » .

فالمانع والمعطي هو الله ، هذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه ،
 وقول : « وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » .

أي : لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، أو لا ينجيه حظه منك بل ينفعه
 عمله الصالح .

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٨ / ٢٧١) ، ط دار الكتب العلمية .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة رقم (٨٤٤) ، وانظر أطرافه
 هناك ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان
 صفته رقم (٥٩٣) .

ومن الأدلة الجميلة : ما رواه البخاري ومسلم ^(١) عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل التراب معنا ، وهو يقول :

وَاللّٰهُ لَوْ لَا اللّٰهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا ضُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا
وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا
وفي لفظ البخاري ^(٢) : « وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا » .

يقول تعالى : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ^ط قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[الحجرات: ١٧]

والحديث دليل على أن الله عز وجل هو خالق العباد وخالق أفعال العباد ومنها الهداية والصلاة والصدقة إن تيسر شيء فبتيسيره ، وإن تعسر شيء فبتقديره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] .

لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللّٰهُ ﴾ رقم (٦٦٢٠) ،

ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق رقم (١٨٠٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب رقم (٤١٠٤) .

لكانت رحمته لهم خيرًا من كل أعمالهم .

أكتفي بهذا القدر . وَأَفْصَلُ – بإذن الله عز وجل – في أقوال أهل السنة والجماعة في هذه المرتبة ؛ لأبين المنهج الحق دون أن أخوض في أقوال أهل الباطل من فرق الضلال .

وَأَسْأَلُ الله سبحانه وتعالى أن يملأ قلوبنا بالإيمان به وبقضائه وقدره ، إنه على كل شيء قدير .



مذاهب الناس
في
القضاء والقدر

مذاهب الناس في القضاء والقدر

إن الناس قد انقسموا فريقين في قضية الإيمان بالقدر :

الفريق الأول : هو فريق أهل الحق والهدى الذين آمنوا بالقدر خيره وشره وآمنوا بأن الله تبارك وتعالى عَلِمَ ما كان وما هو كائن وما سيكون ، ثم كتب في اللوح المحفوظ ما أراد وشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ثم خلق الله تبارك وتعالى الخلق وخلق كل شيء بما في ذلك خلقه للعباد ولأفعالهم ، هذا معتقد أهل الحق .

والفريق الثاني : فريق أهل الضلال أعاذنا الله وإياكم من أهل الضلال والخذلان الذين خالفوا ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في هذا الباب الكبير ، منهم من نفي القدر وهؤلاء من المجوسية والمشركية وهم نفاة القدر في هذه الأمة والمشركون في القدر .

وكذلك الإبلسية الذين هم على معتقد إبليس الذي احتج بالقدر في معصية الله تبارك وتعالى .

فهؤلاء : منهم من نفي القدر وزعم أن الله تعالى لا يعلم الأشياء قبل أن تقع بل يعلمها إن وقعت ، وهؤلاء هم القدرية النفاة وعلى رأس هؤلاء معبد الجهني فهو أول من أصّل هذا المعتقد الباطل

الفاسد : أن الله لا يعلم الأشياء قبل أن تقع بل يعلمها بعد وقوعها وحدوثها تعالى الله عما يقول المشركون الظالمون علوا كبيرا .

روي مسلم ^(١) في صحيحه قال: حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ : كَانَ أَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ - أَيِ بِنْفِي الْقَدْرِ - بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ فَاَنْطَلَقْتُ - أَيِ : يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ - أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُمَيْرِيُّ حَاجِبَيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ .

قَالَ : فَوَفَّقَ لَنَا - وهذا من الإيمان بالقدر - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاسْتَفْتَاهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ : أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - ينادي على ابن عمر رضي الله عنهما - إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - يعني يبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ودقائق مسائله - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفٌ - يعني لا يعلمه الله إلا بعد وقوعه .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه رقم (٨) .

فقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - انظر إلى فقه الصحابة ومعتقد الصحابة وهو المعتقد الحق في هذا الباب - قَالَ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنِّي ، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ .

ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وساق الحديث الطويل وفيه سؤال جبريل للنبي الجليل : « مَا الْإِيمَانُ ؟ » قَالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » .

فهذا أول فريق من فرق الضلال هؤلاء الذين زعموا نفي القدر وأن الأمر أنف ، فنفي هذا الفريق الضال علم الكبير المتعال بالأشياء قبل وقوعها وحدوثها ، وقالوا بأنه يعلم بالموجودات والمخلوقات لكن بعد إيجادها تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وزعم هؤلاء المبطلون كذباً وزوراً : أن الله تعالى لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا يعلم من يدخل الجنة منهم ومن يدخل النار !!

فهذه الفرقة الضالة لم تكتف بنفي مرتبة العلم فحسب ، بل نفت كذلك مرتبة الكتابة ، وزعمت أن الله تعالى لم يكتب مقادير الخلائق

عنده ، وقد بينا ذلك بالأدلة من القرآن والسنة .

والحديث العمدة في هذا الباب : ما رواه مسلم ^(١) من حديث عبد الله بن عمرو :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وهذا زمن الكتابة وليس زمن التقدير فالتقدير أزلي ، كما بينت . ولم يظهر هذا المعتقد الفاسد إلا في آخر عهد الصحابة ؛ فقال به معبد الجهني ، ثم تقلد عن معبد هذا المذهب الباطل رؤوس المعتزلة وأئمتهم كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد .

أما واصل بن عطاء ؛ ^(٢) فقال فيه أبو الفتح الأزدي : رجل سوء كافر . وقال الذهبي : كان من أجلاد المعتزلة ولد سنة ثمانين بالمدينة ، وكان يتوقف في عدالة الصحابة ، وفي عدالة أهل الجمل على وجه التحديد ، وهو يقول : إحدى الطائفتين فسقت ، ثم يقول : لو شهدت عندي عائشة وعلى وطلحة على باقة بقل - على حزمة بقل - فشهادتهم مردودة ، وهذا القزم يتناول على عائشة أم المؤمنين ويقول

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليها السلام - رقم (٢٦٥٣) .

(٢) انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤) ، ولسان الميزان (٦/ ٢٨٣) ، وميزان الاعتدال (٤/ ٣٢٩) وغيرها .

شهادتها مردودة عندي !! ومن أنت ليكون عندك عند ؟!! هلك هذا في العام الحادي والثلاثين بعد المائة .

وأما عمرو بن عبيد^(١) ، فهو من رؤوس الضلال وهو ابن ثوبان ، ويقال : ابن كيسان التيمي أبو عثمان البصري من أبناء فارس .

قال ابن كثير : هو شيخ القدرية والمعتزلة .

قال الإمام أحمد : « لا ليس بأهل أن يحدث عنه » .

قال علي بن المديني - إمام الأمة في الجرح والتعديل : « ليس بشيء ليس بشيء » .

وقال يحيى بن معين - من أئمة الجرح والتعديل : « كان عمرو بن عبيد رجل سوء » .

قال يحيى بن القطان : كان ابن المهدي لا يحدث عنه - يعني عمرو ابن عبيد .

قال أبو حاتم : متروك .

قال النسائي : ليس بثقة .

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/١٠٤) ، وميزان الاعتدال (٣/٢٧٣) ، وتهذيب التهذيب (٨/٥٨) ، والجرح والتعديل (٦/٢٤٦) رقم (١٣٥٦) ، والبداية والنهاية (١٠/٨٥) .

قال يونس بن عبيد و أيوب : كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث .

قال حماد عن سلمة قال لي حميد : لا تأخذ عنه ؛ فإنه كان يكذب في الحديث . قال : وكذا قال أيوب وعوف بن عون .
وقال أيوب : ما كنت أعدلُهُ عقلاً .

وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء .

قال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه ؛ لأنه كان يدعو إلى القدر .
وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل وأثنى آخرون على عبادته وزهده وتقشفه .

قال الحسن : سيد شباب القراء ما لم يحدث ، لتقشفه وورعه وزهده ،
كان يشتم الصحابة والعياذ بالله وكان يكذب في الحديث .

قال : روي له بعض طلاب العلم حديثاً عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ... » إلى آخر الحديث ^(١) فلما سمعه ، قال هذا الخبيث - عمرو بن عبيد : لو سمعت الأعمش يرويه

(١) سبق تخرجه .

لكذبتة ، ولو سمعته من زيد بن وهب ، لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله ، لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت له : ما على هذا أخذت علينا الميثاق !!! نعوذ بالله من الضلال والخذلان وهذا لا شك من أقبح الكفر والعياذ بالله .

ولما سئل عبد الله بن المبارك عن عمرو بن عبيد قال^(١) : أيها الطالب علمًا ايت حماد بن زيد - وحماد من أئمة أهل السنة :

أيها الطالب علمًا ايت حماد بن زيد
فخذ العلم بحلم ثم قيده بقيد
وذر البدعة من آثار عمرو بن عبيد

وهي بدعة القول في القدر ، والعياذ بالله ، ثم توارثت القدرية هذا المذهب الفاسد بعد هؤلاء - يعني واصل وعمرو - وتواصوا به ، فمنهم من نفى علم الله تبارك وتعالى كالأولين ، ومنهم من نفى علم الله بالجزئيات دون الكليات ، قالوا : إن الله يعلم الكليات فحسب ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/٨٦) .

ثم افترقوا في أفعال الله كما افترقوا في عمله .

* فقالت فرقة في أفعال العباد : ليست مقدورة لله ، ولا مخلوقة لله

لا الخير ولا الشر .

* وفرقة ثانية قالت : الخير فقط من أفعال العباد مخلوق لله ومقدور

له ، وأما الشر فليس مخلوقاً لله ولا مقدوراً لله ، فأثبتوا نصف القدر

وأنكروا النصف الآخر ، وأثبتوا خالقين : خالقاً للخير ، وخالقاً للشر ،

وهم في الحقيقة مجوس هذه الأمة الذين أثبتوا للعالم إلهين : للخير إله ،

وللشر إله آخر .

* وفرقة أخرى من فرق الضلال هم الجبرية الغلاة الجفافة الذين

زعموا أن العبد مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها كالريشة تحركها الرياح ،

يزعمون بأن الله تعالى ظالم ؛ لأنه هو الذي خلق العباد وجبرهم على

فعل ما لا يرضى ، ثم حاسبهم على ذلك وعذبهم عليه فسلبوا العبد

قدرته واختياره ، وأخرجوا عن كل أفعال الله تعالى حكمته البالغة ،

وجحدوا حجته الدامغة وأثبتوا عليه تعالى الحجة لعباده ، ونسبوه تعالى

إلى الظلم وطعنوا في عدله وشرعه ، فلا قيام عنده لسوق الجهاد ، ولا

لإقامة الحدود ، ولا للشواب ولا للعقاب ، بل ولا معنى عندهم

لإرسال الرسل ، ولا إنزال الكتب ؛ لأن الله هو الذي خلق الخلق ، وهو الذي يجبرهم على فعل ما يريد ، ثم يعذبهم بعد ذلك على معاصيهم وذنوبهم ، فأقاموا عذر إبليس اللعين ، وعذر فرعون وهامان وقارون ، وسائر الأمم العصاة من الممقوتين المقبوحين ، والمغضوب عليهم والضالين .

قالوا : إنه عاقبهم ومقتهم على طاعتهم إياه ؛ لأنهم إن كانوا خالفوا شرعه فقد أطاعوا كونيته وإلهيته وسأتكلم عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية إن شاء الله .

قالوا : لأنهم إن كانوا خالفوا فقد أطاعوا إرادته ومشيئته ^(١) .

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله تعالى - كثيراً من عبارتهم الخبيثة الخطيرة التي لا يستطيع المؤمن أن يحكيها ، فقد جاءت جماعة إلى منزل رجل من هؤلاء فقالوا له : من أين أتيت ؟ قال : كنت أصلح بين قوم متخاصمين فقبل له : وأصلحت بينهم ؟ قال : أصلحت بينهم إن لم يفسد الله بعد ذلك .. تعالى عما يقولون علواً كبيراً .

انظر إلى الإجماع ، فقالوا له : بؤساً لك أتحسن الثناء على نفسك

(١) انظر: معارج القبول (٢/ ٨٠٣، ٨٠٤) بتصرف يسير .

وتسيء الثناء على ربك ^(١)!!؟

قال ابن القيم ^(٢):

«سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء ، فقال لي هذا الشيخ الضال : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب ، والكون كله مراده ، فأني شيء أبغض منه ، فهو يحب الخنزير ويحب فرعون ويحب إبليس !!!

يقول ابن تيمية فقلت له : فإذا كان المحبوب جلّ جلاله قد أبغض بعض من في الكون وعاداهم ولعنهم فأحببتهم أنت وواليتهم ، أكنت ولياً للمحبوب أم عدوّاً له ؟!

قال ابن القيم : فكأنما ألقم حجراً .

قال ابن القيم :

وسمعت شيخ الإسلام يقول : «القدرية مذمومون في السنة وعلى لسان السلف وهم القدرية المجوسية والمعارضون به للشرع القدرية المشركية أو المشركون الذين قالوا : لو شاء ربنا ما أشركنا وبعد ذلك الإبليسية وشيخهم إبليس هؤلاء الذين احتجوا بالقدر على الكفر

(١) انظر: المصدر السابق (٢/٨٠٦) .

(٢) انظر: شفاء العليل ص ٦ ، وانظر معارج القبول (٢/٨٠٦) .

والذنوب والمعاصي ، فهو أول من احتج على الله بالقدر فقال :
﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦] ولم
يعترف بالذنوب ويبوء به كما اعترف به آدم .

فمن أقر بالذنوب - وباء به - ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ، ومن أشبه
أباه فما ظلم ، ومن برأ نفسه بالقدر أشبه إبليس .

ثم ساق ابن القيم كلاماً طويلاً في فرق القدرية وضلالهم ، إلى أن
قال - رحمه الله - تدبر معي : فانظر كيف انقسمت هذه الموارد على
هذه السهام وورث كل قوم أثمتهم وأسلافهم ، إما في جميع تركتهم ،
وإما في كثير منها ، وإما في جزء منها ، وهدى الله بفضلته ورثة أنبيائه
ورسله لميراث نبيهم وأصحابه - رضي الله عنهم - فلم يؤمنوا ببعض
الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيتته العامة
النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب
ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً والمصلي
مصلياً والمتقي متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون لطاعته ، فأطاعوه
ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه تعالى حال بين الكفار وقلوبهم ، فإنه
تعالى يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ولو شاء لوفقهم فآمنوا به
وأطاعوه .

وأنه من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم وأنه لو شاء ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ^(١) .

هذا هو الحق الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ؛ ولذا حذر النبي ﷺ من قول أئمة الضلال في هذا الباب ونهى عن التخاصم والتنازع في القدر وعن الاحتجاج بالقدر .
فقال النبي ﷺ :

« أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا : حَيْفَ الْأَئِمَّةِ - ظَلَمَ الْأَئِمَّةُ - وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ ، وَتَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ » ^(٢) .

وروى أبو يعلى في «مسنده» والخطيب وابن عدي بإسناد صحيح ^(٣)
عن أنس أن النبي ﷺ قال :

(١) انظر : معارج القبول (٢/ ٨٠٧) بتصرف يسير .

(٢) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي محجن كما في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣٠ / ١) وقال العراقي : « بإسناد ضعيف » ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٤٨٢) ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٢٧) ، وصحيح الجامع (٢١٤) .

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤١٢١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣) : « وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف ووثقه ابن عدي » . ورواه كذلك ابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٥٠) ، وانظر : الصحيحة (١١٢٧) ، وصحيح الجامع (٢١٥) .

« أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي خَصْلَتَيْنِ : تَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ ، وَتَصْدِيقًا بِالنُّجُومِ » .

وحذر النبي ﷺ أمته من هذا الضلال في الحديث الذي رواه الطبراني في «معجمه الأوسط» ، والحاكم في «المستدرک» بسند صحيح ^(١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال :

« آخِرَ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ أُمَّتِي » .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَزَالُ مُقَارِبًا حَتَّى يَتَكَلَّمُوا فِي الْوُلْدَانِ وَالْقَدَرِ » ^(٢) .

روى الإمام أحمد في «مسنده» بسند حسن من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قَالَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

(١) أخرجه البزار والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٢٠٢/٧) ، وقال الهيثمي : « رجال البزار في أحد الإسنادين رجال الصحيح غير عمر بن أبي خليفة وهو ثقة » ، والحاكم في المستدرک (٤٧٣/٢) ، وقال : « صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه » وقال الذهبي : « غنبة ثقة ، لكن لم يرويا له » ، وابن عدي في الكامل (١٩٠٢/٥) ، وابن أبي عاصم في السنة (٣٥١، ٣٥٠) ، وصححه الشيخ ناصر هناك وفي الصحيحة برقم (١١٢٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٠٨٦) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٢/٧) ، وقال : « رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح » ، والحاكم في المستدرک في كتاب الإيمان (٣٣/١) ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا نعلم له علة ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وابن حبان في صحيحه (١٨٢٤) موارد وإسناده صحيح ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٧٥) ، وصحيح الجامع (٢٠٠٣) .

« لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا قَدَرَ ، إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُهُمْ ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُهُمْ » ^(١) .
أي : فلا تشهدوا جنازتهم .

وفي «مسند» أحمد و«سنن» أبي داود بسندٍ حسنه الشيخ ناصر - رحمه الله - من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال :
« الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُهُمْ ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُهُمْ » ^(٢) .

روى أحمد وابن أبي عاصم في «السنة» ^(٣) وغيرهما عن أبي الدرداء -

(١) أخرجه أحمد في المسند (٨٦/٢) ، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٦٩٢) من حديث حذيفة ، وأخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٩٢٢٣) من حديث سهل ابن سعد ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/٧) ، وقال : « وفيه يحيى بن سابق وهو ضعيف » ، وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند : « ضعيف » ، وحسن إسناده الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع رقم (٥١٣٦) ، والمشكاة (١٠٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٦٩١) ، والحاكم في المستدرک ، في كتاب الإيمان (٨٥/١) ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين : إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر ، لم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط (٢٤٩٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٥/٧) ، وقال : « وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح وغيره وضعفه جماعة » ، وحسن إسناده الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع (٤٤٤٢) وفي السنة (٣٢٨ ، ٣٢٩) .

(٣) أخرجه أحمد (٤٤١/٦) ، وابن أبي عاصم في السنة (٣٢١) ، واللالكائي (١١١٠) مراسلاً والبخاري والطبراني كما قال الهيثمي في المجمع (٢٠٣/٧) ، وابن بطة في الإبانة (١٥٢٦) ، والطيالسي (١١٣١) ، وحسنه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١٣٠/١) ..

رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : عَاقٌ ، وَمُذْمَنٌ ، وَكَاهِنٌ ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ » .

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - ^(١) أنه ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا : عَاقٌ ، وَمَنَّانٌ ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ » .
إلى آخر الأحاديث التي حذر فيها النبي ﷺ من هؤلاء مجوس هذه الأمة .

وفي «سنن» الترمذي عن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ : قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ : لَا الْقَدَرَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَاقْرَأِ الزُّخْرَفَ ، قَالَ : فَقَرَأْتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾

[الزخرف: ٤]

فَقَالَ : أَتَدْرِي مَا أُمُّ الْكِتَابِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] .

قَالَ عَطَاءٌ : فَلَقِيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ صَاحِبَ رَسُولِ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٢٣) ، وابن بطة في الإبانة (١٥٢٨) وحسنه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٣١) وصحيح الجامع (٣٠٦٥) والصحيحة (١٧٨٥) .

الله ﷺ فَسَأَلْتُهُ : مَا كَانَ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ ؟ قَالَ : دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي : يَا بُنَيَّ ، اتَّقِ اللَّهَ - تدبر وصايا الصحابة لأبنائهم عند الموت - وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، فَإِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ : اكْتُبْ ، فَقَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ » .

قال الترمذي : « حديث غريب من هذا الوجه » ^(١) ، وصححه الشيخ ناصر في « صحيح سنن الترمذي » .

وقد نعى الأئمة على كفر أئمة الضلال الذين نفوا قدرة الكبير المتعال ، وممن نعى على كفرهم : الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد ومنهم من توقف في تكفيرهم .

قال القرطبي : وقد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين إلى آخره .

إنما أريد الآن أن أؤكد معتقد النبي ﷺ وما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - وأبين في بعض المناظرات المختصرة أن حجة أهل

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ١٧ رقم (٢١٥٥) ، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، وأحمد في مسنده (٣١٧/٥) ، واللفظ للترمذي ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٣) .

السنة أقوى بكثير من شبهات أهل الباطل في هذا الباب الكبير ، ففي صحيح مسلم ^(١) أيضًا عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيِّ - رحمه الله تعالى - قال : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صحابي جليل ، وأبو الأسود الدؤلي من التابعين ، انظر إلى معتقد الصحابة وفهمهم وأسلوبهم في إقامة الحجة وتبيينهم للحق في هذا الباب - قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ - الصحابي يحرز عقل التابعي ، كما يسأل الشيخ الطالب في مسألة يريد أن يحرز عقله وأن يتعرف على معتقده ومنهجه في مسألة .

فعمران يقول : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَّتَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ قَالَ : فَقَالَ : أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا ؟ قَالَ : فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَقُلْتُ : كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ وَمَلَكَ يَدِهِ ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ - جواب جميل بديع .

فَقَالَ لِي : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَخْزِرَ عَقْلَكَ ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةِ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا :

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥٠) .

يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْذِبُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ بِمَا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَتَبَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا ، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ٧ فَأَلْهَمَهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ٨ [الشمس: ٧، ٨] .

وفي «سنن» أبي داود ^(١) : عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَقُلْتُ لَهُ : وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي .

فَقَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ : « لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٦٩٩) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب في القدر رقم (٧٧) ، وأحمد في المسند (١٨٢/٥) ، وابن حبان (٧٢٧) ، وعبد بن حميد (٢٤٧) ، والطبراني في الكبير (٢٣٢/١٠) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤) .

لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ » .

قال ابن الديلمي : قَالَ : ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ : ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ : ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ .

هذا قول الصحابة - رضوان الله عليهم - معتقد واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو ما جاء به النبي ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر ^(١) - رحمه الله :

« وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سبباً في دخول الجنة من كل وجه ، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل وأنها ثمنه وأن دخولها بمحض الأعمال ، والحديث يبطل دعوى الطائفتين ، والله أعلم » .

وقال شيخ الإسلام ^(٢) - رحمه الله - بعد أن ذكر الحديث :

« فهذا من بيان عدل الرب سبحانه وتعالى وإحسانه وتقدير الخلق عن واجب حقه ، حتى الملائكة والأنبياء وغيرهم ، وأنه لو عذبهم لم يكن ظالماً لهم ، فكيف بمن دونهم » .

(١) فتح الباري (١١/٢٩٦) .

(٢) الرد على البكري (٢/٤٦٥) ، ومجموع الفتاوى (١/٢١٧) ، (١٨/١٤٣) ، (١٤٤) .

وقال ابن أبي العز الحنفي^(١) - رحمه الله :

« هذا الحديث مما يحتج به الجبرية ، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ؛ ولهذا قابلوه : إما بالكذب ، وإما بالتأويل !! وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق » .

وتدبروا معي هذه المناظرات الرقيقة التي لم يستطع منطق المعتزلة وعقولهم التي قدموها على النقل الصحيح ، لم تستطع أن تقف أمام بعض حجج عوام أهل السنة .

فلقد جاء أعرابيٌّ إلى عمرو بن عبيد رأس الضلال ، وقال الأعرابي :

إن ناقتي سرقت فادع الله أن يردها علي .

فقال عمرو بن عبيد : اللهم إن ناقة هذا العبد الفقير سرقت ولم ترد سرقتها اللهم ردّها عليه .

فقال الأعرابي الفقيه : الآن ذهبت ناقتي ويئست منها .

فقال عمرو بن عبيد : كيف ؟

(١) شرح الطحاوية (٤٥٠) .

فقال الأعرابي : لأنه إن أراد أن لا تسرق فسرقت فلا آمن من أن يريد رجوعها فترجع !!^(١) .

وبهذه الكلمات الحاسمة على قِلَّتِها يُقيم هذا الأعرابي بفطرته النقية، وعقيدته السوية الحجة على رأسِ القدرية !!

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٩) المكتب الإسلامي ، بمعناه ، والإبانة لابن بطة (٢/ ٢٨٠) ، ط دار الراية .



تفنيد الشبهات

تفنيد الشبهات ^(١)

ونبدأ بإذن الله تعالى في تفنيد أخطر شبهة وهي شبهة قديمة حديثة ،
 ألا وهي : شبهة الجبرية الجفاة الغلاة الذين يزعمون أن العباد
 مقهورون مقصورون مسيرون ، فلا قدرة لهم على شيء ، ولا إرادة
 لهم في فعل شيء ولا اختيار .

وزعم هؤلاء الجفاة الغلاة أن تكليف الله للخلق والعباد حيث
 أمرهم بالطاعات ونهاهم عن المعاصي كتكليف المشلول بالمشي ،
 وتكليف الأعمى بالكتابة ، وتكليف الحيوان البهيم العاجز
 بالطيران في أرجاء الأرض ، وزعموا : أن تعذيب الله لخلقه وعباده
 تعذيبٌ على فعله هو سبحانه لا على أفعالهم وهذا ظلم منه !! جلَّ
 جلاله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وزعموا ذلك بدعوى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الشر ،
 فالشر مخلوق له ومفعول له فهو خلقه وفعله ومراده ، واستدلوا على
 هذا المذهب الباطل القديم الحديث بآيات من القرآن لم يحسنوا فهمها
 بعقولهم السقيمة .

(١) انظرها في شفاء العليل بتفصيل موسع .

ومع ذلك فشبهة الجبرية هي أخطر الشبهات في باب القدر ؛ لأنها قديمة وحديثة ، فهذا ما يردده كثير من الناس : أن الإنسان مسير ليس خيّرًا ، وأنه مقهور مجبور ، فلم يعذبه الله تعالى على فعل ، لا اختيار ولا مشيئة ولا إرادة له في فعله ؟!

وقبل أن أفند هذه الشبهة أتضرع إلى الله عز وجل أن يرزقنا الصواب ، ونحمد الله الذي هدانا للإيمان به وبقدره خيره وشره ، ونسأله أن يثبتنا على هذا المعتقد الذي كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه .

وقبل تفنيد الشبهة أود أن أوصل بأصلين في غاية الأهمية قبل مناقشة أدلة الجبرية في هذا الباب .

الأصل الأول :

الألفاظ التي استعملها الجبرية - من أتباع جهم بن صفوان وغيره - لا أصل لها في القرآن والسنة ، فلفظة : الجبر لا أصل لها في كلام الله ، ولا في كلام النبي ﷺ .

ولفظه : الإنسان مسير أيضًا لا أصل لها في القرآن ، ولا في سنة النبي ﷺ ، والواجب على هؤلاء الذين يزعمون أنهم يتحدثون بالعلم وبالدليل ، ويبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ويقولون كلامًا

مفخماً مضخماً، الواجب على هؤلاء ، بل وعلى الجميع في مثل هذه الأبواب الكبيرة الخطيرة من أبواب الدين أن يتقيد بما ثبت من ألفاظ في كتاب الله وكلام المصطفى ﷺ^(١).

روى الخلال^(٢) في كتاب «السنة» بإسناده عن بقي بن مخلد قال : سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر ، فقال الزبيدي : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر لكن يقضي ويقدر ويخلق ويحبب عبده على ما أحبه .

انظر إلى ألفاظ السلف لكن يقضي ويقدر ويخلق ويحبب عبده على ما أحبه ، كلها ألفاظ مشروعة .

وقال الأوزاعي :

ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة ، فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخلق والحبب - جبل الله الإنسان على شيء أي فطره - فكله يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ .

وإنما أنكر السلف بأن الإنسان مجبر على فعله ؛ لأن لفظ الجبر مجمل ، فقد يراد بالإجبار الإكراه كقولك مثلاً : أجبر الوالد ابنته على النكاح

(١) انظر : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، للدكتور عبد الرحمن بن

صالح المحمود (ص ٢٠٠) ، ط دار الوطن .

(٢) السنة للخلال (٣/ ٥٥٥) ، ط الراجعية .

أي : قهرها وأرغمها على ذلك دون رغبة منها ولا اختيار ، وكقولك - مثلاً : أجبر القاضي فلاناً على الخروج من ماله ، أو على الخروج من بلده أو بيته ، فمعنى الإجبار هنا : الإكراه والقصر والقهر .

فيكون قول الجبرية بالجبر معناه : أن الله تبارك وتعالى أجبر وأكره العباد على فعل شيء ، ثم يحاسبهم بعد ذلك على فعل هذا الشيء ، هذا ظلم ينزه البشر من أهل الفضل والعقل والإنصاف من الوقوع فيه ، فكيف بخالق البشر الذي من أسمائه : العدل ، والحكيم ، واللطيف ، والقدوس ، والعليم ، والخبير - جلّ جلاله ؟

صفاته كلها كمال وأسمائه كلها حسنى ، إذن لما كان لفظ الجبر لفظاً مطلقاً مجملاً ، منع السلف - رضوان الله عليهم - من إطلاقه نفيًا أو إثباتًا .

ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتاب «السنة» أن المروزي قال للإمام أحمد :

يا أبا عبد الله ! إن رجلاً يقول : إن الله أجبر العباد ، فقال له رجل آخر : لا ، إن الله لم يجبر العباد أي : على المعاصي ، إنه يريد أن يثبت القدر وما عليه أهل السنة ولكنه استخدم لفظة الجبر .

فلما سئل الإمام أحمد عن ذلك قال :

لا يقول هكذا . وأنكر على الرجلين معاً .

أنكر على الذي قال : إن الله أجبر العباد ، وأنكر على الذي قال : لا ،
إن الله لم يجبر العباد - أي على المعاصي .

وقال : بل قل : إن الله جلّ وعلا يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ،
«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية «المجلد الثامن»^(١) .

إذن هذه اللفظة لا أصل لها في القرآن ولا في سنة النبي ﷺ ،
ولذلك لم يستعمل السلف - رضوان الله عليهم - هذه اللفظة لا نفيًا
ولا إثباتًا .

الأصل الثاني :

إن استدلال الجبرية بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي ﷺ ،
ليؤكد لنا تأكيدًا جازمًا أن سوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ أصل كل
بدعة وفتنة وضلال .

قال ابن القيم^(٢) - رحمه الله تعالى :

« وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية
والرافضة وسائر طوائف أهل البدع ، هل أوقعهم فيما وقعوا فيه إلا

(١) السنة للخلال (٣/ ٥٥٢) ، ومجموع الفتاوى (٨/ ١٠٣) .

(٢) الروح لابن القيم (٦٣) ، ط دار الكتب العلمية .

سوء الفهم عن الله ورسوله ؟ » .

فقد يحتاج جاهل بدليل من القرآن ولكنه لم يفهم الدليل ولا مرتبة الدليل ، ولم يحقق مناط الدليل فقد يخرج علينا من يجيز الاستغائة بالأولياء وسؤالهم والذبح والنذر لهم من دون الله ، ثم يستدل على هذا التأصيل الباطل بقول الله تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[يونس: ٦٢]

ما علاقة هذا الدليل بهذا التأصيل الفاسد ؟! - انتبه إلى هذا الأصل -
ما علاقة تأصيل الجبرية لمذهبهم الفاسد الباطل بآيات الخلق والمشية والإرادة ؟!! لا علاقة البتة لهذا التأصيل بهذه الآيات .

واستدلّاهم بهذه الآيات ليس دليلاً على الإطلاق على أن ما يؤصلونه هو الحق ، فقد يستدل أهل الباطل بالأدلة القرآنية والنبوية لكنهم لم يفهموا الدليل ، ولم يفهموا مراتب الدليل ، ولم يحققوا مناط الدليل ، فاستشهدوا بالدليل في غير موضعه ، كرجل لا يصلي . فإن قلت له : لماذا لا تصلي ؟

يقول لك : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

ما علاقة هذا الدليل بهذا الباطل ؟

لا علاقة له البتة .

وبعد هذين الأصلين المهمين نناقش أدلة الجبرية :

مناقشة أدلة الجبرية :

فلقد استدل الجبرية على أن العباد مجبورون مقهورون على أفعالهم ، وأنه لا إرادة لهم ، ولا مشيئة ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي أكرههم على فعل المعاصي ويحاسبهم عليها - تعالى الله عن ذلك .

أما الأدلة التي استدلوا بها كثيرة ؛ لأنهم استدلوا بالآيات العامة التي تدل على أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وهذا حق ، فالحق تبارك وتعالى هو خالق كل شيء قال جلّ وعلا :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾

[الأنعام: ١٠٢]

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۚ ﴾

[الزمر: ٦٢]

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ ٱلْخَلْقُ

عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَحِيدُ ٱلْقَهَرُ ﴾ [الرعد: ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾

[فاطر:٣]

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ [غافر:٦٢] إلى آخر الآيات .

قالوا : إن هذه الآيات تدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه لا خالق إلا هو ، وهذا كله حق ، وأفعال العباد شيء والله خالقها وحده - انظر إلى التأسيس الفاسد - ومن ثم : فلا قدرة ولا إرادة للعباد في أفعالهم فهم مجبرون وليسوا مخيرين !!

من أين استدل الجبرية على هذه النتيجة الفاسدة من هذه الآيات ؟
﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢] ،
الله الذي خلق العباد ، وخلق أفعال العباد ، هذا حق ، لكن من أين استدل الجبرية من هذه الآيات على أن العباد مجبورون مقهورون لا اختيار لهم ولا إرادة ؟

ما الدليل في هذه الآيات على أن الله قهر وأكره وأجبر العباد على فعل المعاصي والذنوب ، ثم يحاسبهم عليها كما قالت الجبرية ؟ قالوا :

الله يحاسب على فعله هو ، لا على أفعالهم ؛ لأنه أجبرهم وأكرههم على ذلك ، وهذا ظلم - تعالى الله عما يقول الجبريون علواً كبيراً !!

ثم استدلوا - أيضاً - بآيات المشيئة ، قالوا : إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب المشيئة وحده ولا مشيئة للعباد ولا اختيار ، واستدلوا بآيات عامة في إثبات المشيئة - وهي حق - قال تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] .

قالوا : فإن الإنسان بهذه الآيات مسلوب الإرادة والمشيئة ، والله هو الذي يشاء ويريد ، ويهدي ويضل ، فهو الخالق لأعمال العباد ، وهذا كله من أعمال العباد ، ومن ثم فالعباد مجبرون ولا إرادة لهم ولا

مشيئة ولا خلق لهم ، واستدلوا أيضًا بقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وبقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً ﴿ [البقرة: ٦، ٧].

وبقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجنات: ٢٣].

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨] والختم : هو: الطبع. ومعناه: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ، ولا يدخل

إليه خارج عنه .

واستدلوا أيضًا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

[النساء: ٧٨]

واستدلوا بعد هذه الأدلة القرآنية بالعقل ، فقالوا : إن الله علم وأراد أولاً وجود أفعال العباد وتعلقت قدرته بوجودها فيما لا يزال ، فما وقع من أفعال العباد فهو بقضاء الله وقدره ، والعباد مجبورون عليها ^(١) .

يعني : لا يستحق الله اسم القدير إلا إذا وجد أو خلق المخلوقين ، وفعلوا الأفعال التي قدرها أولاً ؛ ليستحق بذلك اسم القدير ، وقد قلنا : بأن الله خالق قبل أن يخلق المخلوقين ، وعالم قبل أن يعلم أحوالهم ، ورازق قبل أن يرزق المرزوقين .

(١) نقلا عن القضاء والقدر للمحمود (٣٣١) .

ولتفنيد هذه الأدلة ، أقول - وأسأل الله التوفيق :

أما الآيات التي استدلت بها الجبرية على أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، فدلالة هذه الآيات حق كما ذكرت ، ولكن من أين يفهم من هذه الآيات أن الله تبارك وتعالى قد أكره وأجبر العباد على فعل المعاصي ، ثم يحاسبهم عليها ؟

ليس لدى الجبرية إطلاقاً دليل صحيح صريح ينفي أن العباد فاعلين لأفعالهم ؛ بل غاية أدلتهم أنها تثبت أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، وهذا حق لا مرأى فيه .

لكن ؛ لا يمكن لعاقل أن يفهم من هذه الأدلة أن الله أجبر وأكره وقهر العباد على فعل المعاصي ثم يحاسبهم عليها ، ثم آيات المشيئة لله وحده ، وهذا حق ، لكن نفس الآيات وغير هذه الآيات كثير جداً في القرآن تثبت أن للعباد مشيئة ، فلماذا احتجوا بهذه الآيات وغضوا الطرف عن هذه الآيات ؟

ولذلك ؛ فإن الأدلة التي استدلت بها المعتزلة على مذهبهم ، تنقض الأدلة التي استدلت بها الجبرية على مذهبهم ؛ لأن المعتزلة بنوا مذهبهم على إثبات الفعل والمشيئة للعبد .

أما الجبرية فقد بنوا مذهبهم على نفي الفعل والمشيئة للعبد .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ^ط فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] هذا إثبات لمشيئة العباد بنص القرآن : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٦، ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ ٧ ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .
وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ [الإسراء: ٩٤]

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٣٩]

وقال تعالى : ﴿ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١] .

وهذه الآيات وغيرها كثير تدل وتنص على أنهم هم الذين يؤمنون ويكفرون ويلبسون الحق بالباطل ويفعلون الكفر.

وقال تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ إِلَّا حَسَنٍ إِلَّا إِلَّا حَسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٦٠﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٦١﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٦٢﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٦٣﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٦٤﴾ [النجم: ٣٦-٤٠] .

فلو لم يكن الجزاء على أعمال العباد أصلاً ، لكان تعذيب الله للعباد على فعل لم يفعلوه ظلماً ، والله تبارك وتعالى منزّه عن العيب والنقص والظلم ، فله كل كمال وجلال - قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

[الأعراف: ٢٣]

وقال عن يونس - عليه السلام : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

وقال عن موسى - عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦] .

وقال يعقوب - عليه السلام - لأولاده : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] .

فهذه الآيات دالة على اعتراف الأنبياء بكونهم فاعلين لأفعالهم .
ومن الأدلة التي استدلت بها المعتزلة - وهم يردون على الجبرية - قول الله تعالى : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] .

ووجه استدلالهم : أن الله بين في هذه الآية أن أفعاله كلها متقنة والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعاً .

وهناك من أفعال العباد ما يشتمل على النقص كالكفر كالتهود والتنصر والتمجس ، وليس شيء من ذلك من الإتقان في شيء ، فلا يجوز أن يكون الله تعالى هو الذي جبرهم على فعله ؛ لأن هذا من النقص .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ص: ٢٧] قال : فنفي أن يكون في خلقه باطل ، والكفر والقبايح من الباطل ، فيجب ألا تكون من جهة الله تبارك وتعالى بل

من جهتنا ومتعلقة بنا .

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] . قالوا : بأن اللام هنا لام الغرض أي : كي يعبدوه ، وهذا يدل على أن الله لا يريد من العباد إلا العبادة والطاعة ، ويدل أيضاً على أن هذه الأفعال : الكفر والإعراض عن العبادة والطاعة متعلقة بالعباد ، وإلا فليس للكلام الذي ذكره الرب تبارك وتعالى أي معنى في قوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

إذن الآيات التي تدل على أن المشيئة لله حق لكن لا يستفاد منها أن الله أكره العباد وجبرهم على فعل الذنوب والمعاصي ؛ بل أثبت الله في القرآن أيضاً المشيئة والإرادة لعباده كما ذكرت .

أما قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

فمعناها : أن من أراد الله له الهداية يشرح صدره للإسلام . أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، وهذه علامات على الخير كما قال ابن عباس : معناها يوسع الله قلبه للتوحيد والإيمان به ، ذكر هذا الحافظ ابن كثير في التفسير عن ابن عباس - رضي الله عنه ﴿وَمَنْ يُرِدْ

أَنْ يُضِلَّهُ، تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴿ [الأنعام: ١٢٥] أي : شديد الضيق عن معرفة الله وحجيته كأنها يتصعد في السماء .

قال : وإن ذلك عدلٌ في عقوبته لمن لم يقدره حق قدره ، ويجحد كمال ربوبيته ، وكفر بنعمته وآثر عبادة الشيطان على عبادته ، فسد عليه أبواب توفيقه وهدايته ، وفتح عليه أبواب غيه وضلاله فضاق صدره ، وقسا قلبه ، وتعطلت من عبودية ربها جوارحه ، وامتلات بالظلمة جوانحه حيث أعرض عن الإيمان ، واستبدل به الكفر والفسوق والعصيان .

وهذا الكلام الجميل من نفيس كلام ابن القيم - رحمه الله تعالى ^(١) .

فمعنى الآية لا يدل على الجبر وإنما يدل على أن الله تعالى يُضَيِّق صدر من لم يؤمن به ولم يستجب إلى داعيه ، وليس هنا دليل على الجبر والإكراه على الإطلاق لا عقلاً ولا نقلاً .

أما الآيات التي ذكرت الختم والطبع على القلوب وعلى الأسماع، والغشاوة على الأبصار فقد استدلت بها الجبرية أيضاً على مذهبهم الفاسد الباطل .

ولا دليل أيضاً للجبرية فيها ؛ لأنه لا يمكن أن يحمل معناها على أن

(١) شفاء العليل (١٠٨) ، ط الفكر - بيروت .

الله منعهم من الإيمان وحال بينهم وبين الإيمان ، ثم يأمرهم بعد ذلك به ، إنما معناها أن الله تبارك وتعالى قال ذلك عقوبة لهم وجزاء لهم على إعراضهم وكفرهم بالله ورسله ؛ ولذلك تدبر معي القرآن قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] .

أعرضوا عن النذارة ، أعرضوا عن منهج الله الذي جاء به رسل الله ، فكان العقاب من جنس العمل : فعوقبوا بأن سد الله عز وجل عليهم باب توفيقه وهدايته ، وفتح عليهم أبواب غيه وضلاله .

فالأية الأولى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالله سبحانه وتعالى كما يعاقب بالعذاب يعاقب بالضلال عن الهدى أو عن الحق عقوبة دائمة مستمرة لحكمة يعلمها سبحانه ، كما سآين ، وقد تكون العقوبة مؤقتة ولا دليل في الآية إطلاقاً على أن الله جبر العباد على فعل المعاصي والذنوب ثم يحاسبهم عليها.

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] فإنها خطاب للنبي ﷺ لما وقع في يوم بدر حيث أنزل الله ملائكته فقتلوا أعداء الله ، فلم ينفرد المسلمون بقتلهم ؛ بل قتلهم

الملائكة ، وكذلك لما أخذ الرسول قبضة من التراب ورمى بها في وجوه المشركين فما من المشركين أحد إلا وقد أصابه التراب في عينيه ومنخره وفمه فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ممتنًا عليه ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فأثبت الله سبحانه للرسول ﷺ الفعل فعل الرمية والإلقاء ، ولكن إيصال ما رمي به النبي ﷺ إلى وجوه المشركين من مسافة بعيدة إلى وجوههم جميعًا ، فلم يكن من فعل النبي ﷺ ولكنه من فعل الرب العلي ، وأن هذه الآية من أعظم الأدلة على نقض قول الجبرية ، فهم لا يثبتون أفعالًا للعباد على الإطلاق وهذه الآية تثبت فعل النبي ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] .

أما قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] .

أي: الحسنة والسيئة . فالمقصود بها عند جمهور المفسرين النعم والمصائب ، والآية رد على المنافقين المتثاقلين عن الجهاد ، وذلك أنهم لما كانت تصيبهم الحسنة كالرزق والثمار والزهور والزروع والأولاد يقولون : هذه من عند الله ، فإذا أصابتهم سيئة من سخط وجذب وموت وغلاء أسعار ونقص في الثمرات والزروع ، يقولون للنبي ﷺ : هذه من عندك ، كما قال الله تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ

قَالُوا لَنَا هَذِهِ ^ط وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١] أفرد الله تبارك وتعالى عليهم وقال : ﴿أَلَا إِنَّمَا طَبَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني : ما طار إليهم من القضاء والقدر من عند الله لا من عند غيره، إذن فالمراد بالحسنة والسيئة في الآية التي استدل بها الجبرية على مذهبهم الباطل : النعم والمصائب . وهذا بإجماع مفسري سلف الأمة - رحمهم الله - وليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره باعتباره من الحسنات والسيئات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله ، وابن القيم - رحمه الله - في «شفاء العليل» ^(١) في رده النفيس على هؤلاء . قال : قال الله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ولم يقل : كل من الله ، بل قال : كل من عند الله ، لما جمع بين الحسنات والسيئات ، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه ، والسيئة إنما تضاف إليه قضاءً وقدراً ، وخلقاً ، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة ، فلهذا قال : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ .

وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة ، بل من جهة ما تضمنته من الحكمة ، والعدل ، والحمد ، وتضاف إلى

(١) بتصرف من شفاء العليل ص ٣٦٠ وما بعدها ، والحسنة والسيئة لابن تيمية (٢٠) ، ط

النفس من حيث كونها سيئة ، ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال :
﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٩].

ولم يقل من عند الله ، فالخير منه سبحانه ، وأنه موجب أسمائه وصفاته ، والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عند سبحانه ، فإنه مخلوق له عدلا وحكمة منه ، والشر موجود بيننا في الكون ، فالأمور الوجودية ليست شرًا بالذات بل بالعرض أو بالنسبة والإضافة مثلاً الظلم يصدر عن القوة الغضبية في الإنسان .

وهذه الصفة تتطلب الغلبة والقهر ، فإذا استخدم الإنسان هذه القوة في موضعها فلا تعد شرًا ، وإذا استخدمها في غير موضعها يقال عنها : هذا هو الشر والظلم ، فإذا وضع الإنسان قوة الاستيلاء والغلبة والقهر ضد عدو صائل ، فلا يقال على استخدامه لهذه القوة : ظلم ، ولو استعمل قوة الغضب هذه في إيذاء الضعفاء وسلب حقوقهم يقال : عدل بهذه القوة إلى غير موضعها فوضع القهر والغلبة موضع العدل والنصفة أي : الإنصاف ، ووضع الغلظة موضع الرحمة ، فلم يكن الشر موجودًا في هذه القوة ولا في ترتب آثارها عليها من حيث هي ، وإنما في إجراء هذه القوة في غير مجراها .

مثال آخر : نهر يجري في مجراه فينفع العباد والبلاد بأمر الله الذي

أجراه ، فإذا انحرف هذا النهر عن مجراه فأغرق وأهلك ، فهل يقال في جريان النهر في مجراه الأصلي شرٌّ أم في انحرافه عن مجراه الطبيعي الشر ؟!

فما دام النهر يجري في مجراه فهو الخير ، فإن انحرف عن مجراه وطريقه إلى أرض يضرها ويخرب دورها كان الشر في العدول به عما أعد له ، وهكذا الإرادة والغضب أعين بها العبد ليتوصل بهما إلى حصول ما ينفعه وقهر ما يؤذيه ويهلكه فإذا استعملنا في ذلك ، فهو كما لها ، فهو خير .

وإذا انصرفا ، أي : الإرادة والغضب عن ذلك ، واستعمل العبد هذه القوة في غير محلها ، وهذه في غير محلها ، صار ذلك شرًّا إضافيًا نسبيًّا ، وليس شرًّا في ذات القوة أو في ذات الإرادة .

وكذلك النار في إحراقها كمال ، فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير ، وإن صادفت - أي النار - ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته ، فهو إضافي نسبي بالنسبة للشيء الذي حُرق وما كان له أن يحرق .

كذلك القتل . فالقتل : هو استعمال الآلة القاطعة في تفريق اتصال البدن ، فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير ، وكون الآلة قابلة للتأثير خير ، وكون المحل قابلاً لذلك أيضًا خير ، وإنما الشر النسبيُّ

إضافي وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل اللائق به لغيره ، وهذا بالنسبة إلى الفاعل ، أما بالنسبة إلى المقتول فهو شر إضافي أيضًا ، وهو ما حصل له من التألم وما فاتته من الحياة ، وقد يكون ذلك خيرًا من جهة أخرى إن قتل شهيدًا !!

كذلك الوطاء . وهو: جماع الرجل لامرأته ، فإن قوة الفاعل وقبول المحل كمال وليس شرًا ، ولكن الشر في العدول به عن المحل الذي يليق به إلى محل لا يحسن ولا يليق ، وهكذا حركة اللسان وحركات الجوارح كلها جارية على هذا المجرى ، فظهر أن دخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر .

وكذلك السجود ليس شرًا من حيث ذاته ووجوده ، فإذا أضيف إلى غير الله كان شرًا بهذه النسبة والإضافة ، ولكنه هو في ذاته ليس شرًا.

كذلك التعظيم من حيث هو تعظيم لا يمدح ولا يذم إلا باعتبار متعلقة إلا باعتبار إضافته أو نسبته ، فإذا كان تعظيمًا لله صار خيرًا وإذا كان تعظيمًا للأصنام أو لغير الله صار شرًا ^(١) ، وضحت المسألة بالنسبة للخير والشر .

(١) شفاء العليل (١٨٢) ، ط الفكر بتصرف .

وهنا سَيَرُدُّ الجبرية ويقولون : فأَيُّ خير في خلق إبليس ؟! ووجوده شرٌّ محضٌ حقيقيٌّ ؟!

والجواب : بأن الشر المحض إن جعله الله تبارك وتعالى في الوجود صار شرًّا نسبيًّا إضافيًّا ، فأَيُّ خير إذن لخلق الله عز وجل لإبليس ، وأي خير في إبقائه إلى آخر الدهر ، بل وأي خير في إخراج الأبوين من الجنة ؟!! هكذا يجيب الجبرية ، وأي خير في إيلاء الأطفال بالمرض والمجانين بالجنون ، وأي خير في الأسقام والأوجاع ؟ وأي خير في خلق الله للنار إلى آخره ؟!

والجواب : بأن الله حكيم لا يخلق عبثًا ولا يفعل بدون حكمة أو مصلحة أو غاية ، بل كل أفعاله لحكمة ، ولمصلحة ، ولغاية ، أعلم الله عز وجل بعض خلقه شيئًا من حكمته ، وأخفى الكثير ، لكن لو خفيت عنا حكمة لخلق خَلْقَهُ الله أو لِفَعْلِهِ فعله الله ، ليس ذلك دليلًا البتة على أن الله خلق هذا بدون حكمة أو لغير منفعة أو مصلحة ؟!

فتعطيل الحكمة والغاية المطلوبة بالفعل إما أن يكون لعدم علم الفاعل بها أو بتفاصيلها ، وهذا محال في حق من هو بكل شيء عليم ، وإما لعجزه عن تحصيلها ، وهذا ممتنع في حق من هو على كل شيء قدير ، وإما لعدم إرادته ومشيئته الإحسان إلى غيره وإيصال النفع إليه ،

وهذا مستحيل في حق أرحم الراحمين .

وإما لما منع يمنع من إرادتها وقصدها ، وهذا مستحيل في حق ما لم يمنعه مانع عن فعله ما يريد ، وإما لاستلزامها نقصاً ومنافاتها كمالاً ، وهذا باطل ، بل هو قلب للحقائق وعكس للفطرة ومناقضة لقضايا العقول ، فإن من يفعل لحكمة وغاية مطلوبة يُحْمَدُ عليها أكمل مما يفعل لا شيء البتة ، كما أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق ، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم ، ومن يقدر ويريد أكمل ممن لا يتصف بالقدرة ولا بالإرادة .

وهذا مركوز في الفطر ، مستقر في العقول ، فنفي حكمته بمنزلة نفي هذه الأوصاف عنه سبحانه ، وذلك يستلزم وصف بأضدادها وهي أنقص النقائص^(١) .

وجمهور الأمة يثبت حكمته سبحانه والغايات المحموده في أفعاله ، فليس مع النفاة - أي : الذين ينفون الحكمة عن أفعال الله سبحانه - سمع ولا عقل ولا إجماع ؛ بل السمع والعقل والإجماع والفطرة تشهد ببطلان قولهم .

وجماع ذلك : أن كمال الرب تبارك وتعالى وجلاله وحكمته وعدله

(١) شفاء العليل (٢٠٤) ، ط الفكر .

ورحمته وقدرته وإحسانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنی تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة ، وجميع أسمائه الحسنی تنفي ذلك وتشهد ببطلانه .

وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك ، وهذا الوجود كله شاهدٌ بحكمته وعنايته ، كيف يتوهم ذو فطرة سليمة صحيحة خلاف ذلك ؟ كيف يتوهم بأن الله يفعل بغير حكمة وبغير منفعة وبغير مصلحة وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع المطلوبة والعواقب الحميدة أعظم من يحيط به وصف أو يحصره عقل؟!!

ويكفي الإنسان فكره في نفسه وخلقه وأعضائه ومنافعها وقواه وصفاته ، فإنه لو استنفد عمره كله لم يحيط علماً بجميع ما تضمنه خلقه .

من الحكم والمنافع على التفصيل والعالم كله علويه وسفليه بهذه المثابة ، ولكن لشدة ظهور الحكمة ووضوحها وجد الجاحد السبيل إلى إنكارها !!!

وهذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة التي أنكرت وجود الصانع مع فرط ظهور آياته ودلائل ربوبيته بحيث استوعبت كل موجود ، ومع هذا سمحت النفوس الجاهلة الظالمة بالمكابرة في إنكاره ، وهكذا في

أدلة علوه سبحانه فوق خلقه مع شدة ظهورها وكثرتها سمحت نفوس الجهمية بإنكارها ، وهكذا سواها كصدق أنبيائه ورسله على رأسهم خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فإن أدلة صدق الأنبياء ، وأدلة صدق النبي ﷺ في الوضوح للعقول كالشمس في دلالتها على النهار ، ومع هذا لم يأنف الجاحدون والمكابرون من الإنكار ، وهكذا في أدلة ثبوت صفات الكمال لمعطي الكمال هي من أظهر الأشياء وأوضحها وقد أنكرها من أنكرها .

ولا يستنكر هذا ، فإنك تجد الرجل منغمساً في النعم ، وقد أحاطت به من كل جانب وهو يشتكي حاله وينسخط مما هو فيه ، وربما أنكر النعمة فضلال النفوس وغيتها لا حد له تنتهي إليه .

فسبحان الله كيف يستجيز أحد أن يظن برب العالمين وأحكم الحاكمين أن يعذب كثيراً من خلقه أشد العذاب لغير غاية ولا حكمة ولا سبب ، وإنما محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب ، فلا سبب هناك ولا حكمة ولا غاية ، وهل هذا إلا من أسوأ الظن برب العالمين ؟ وكيف يستجيز أن يظن بربه أنه أمر ونهى ، وأباح وحرم ، وأحب وكره ، وشرع الشرائع ، وأمر بالحدود ، لا لحكمة ولا مصلحة يقصدها ؟ فأَي حكمة تكون في هذا الشريعة ؟ !

وكيف يكون المبعوث بها رحمة مهداة للعالمين لو كان الأمر كما يقول الجبرية النفاة الغلاة؟ وهل يكون الأمر والنهي إلا عقوبة وعثاً؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله في خلقه وأمره لزاد ذلك عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا ونقص عقولنا ومعارفنا وتلاشيها وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس وهذا تقريب ، وإلا فالأمر فوق كل ذلك .

بعد هذه المقدمة نجيب – والكلام لابن القيم – ^(١) لماذا خلق الله إبليس؟ وما هو الخير؟ وأين الحكمة في خلق الله عز وجل له؟! يقول ابن القيم – رحمه الله :

في ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله ، فمنها أن يكمل الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة الشيطان وحزبه ومخالفته ومراغمته وإغاظته وإغاية أوليائه ، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان ، والإلجاء إليه سبحانه أن يعيدهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يمكن أن

(١) انظر: شفاء العليل (ص ٥١١) وما بعدها بتصرف يسير إلى (ص ٥٢٠) ، ط دار الحديث .

يحصل لهم بدون خلق الله له .

ومنها - أي من الحكم - خوف الملائكة المقربين والمؤمنين من ذنوبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس . وكيف طرد من رحمة الله تعالى لذنبيه ؟ فكيف يأمن الملائكة المقربون بعد ذلك ؟ وكيف يأمن المؤمنون الصادقون بعد ذلك ؟ إن كان قد طرد إبليس من رحمته بذنب كيف يعجب بعد ذلك عالم بعلمه أو عامل بعمله ؟

فستظل هذه العبودية ملازمة للملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والمؤمنين الصادقين لخوفهم من رب العالمين ؛ لأنه طرد إبليس من رحمته بذنب وقع فيه ، فالملائكة المقربون إذا ما أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور . قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

مع أنهم لم يخالفوا الله في أمر ؛ كما قال الله عز وجل في شأنهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦] .

قال النبي ﷺ :

« أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ » ^(١) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب في قول النبي ﷺ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا » رقم (٢٣١٢) ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء رقم (٤١٩٠) ، وأحمد في المسند ١٧٣/٥ ، وصححه الحاكم في المستدرک =

فهذا جبريل رآه النبي ﷺ كالحلس البالي من شدة خوفه من الكبير المتعال وهو أمين وحي السماء .. وهكذا ، فالملائكة المقربون لما رأوا وشاهدوا ما كان مع إبليس ازدادوا خوفاً ووجلاً ، فكيف تستخرج العبودية إلا بمثل هذا الابتلاء والتمحيص؟

والأنبياء والمرسلون وهم أعرف الناس بالله ازدادوا خوفاً ووجلاً من رب العالمين ، والمؤمنون الصادقون لا يغتر واحد منهم بعلمه ولا بعمله ، بل يظل دائماً على خوف ووجل ؛ لأنه لا يأمن مكر الله .

قال تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

[الأعراف: ٩٩]

النبي ﷺ يقول - كما في صحيح البخاري ^(١) : لما مات عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - وهو أول من لقب بالسلف الصالح - رضوان الله عليه - وهو ممن شهدوا بدرًا ، ولما مات قبله النبي ﷺ وبكى حتى سالت دموع النبي ﷺ على خد عثمان - رضي الله عنه ^(٢)

= (٥١٠ / ٢) وسكت عنه الذهبي قلت : في إسناده إبراهيم بن مهاجر قال : يحيى بن سعيد : « لم يكن بالقوي » ، وقال أحمد : « لا بأس به » ، وقال ابن عدي : « يكتب حديثه في الضعفاء » كما في الميزان . وصححه الألباني - رحمه الله - في الصحيحة (١٧٢٢) و (٨٥٢) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه رقم (١٢٤٣) ، وانظر أطرافه هناك .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز ، باب في تقبيل الميت رقم (٣١٦٣) ، والترمذي في كتاب الجنائز ، باب تقبيل الميت رقم (٩٨٩) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في كتاب الجنائز =

لما مات - أي: عثمان بن مظعون - قالت امرأة من الأنصار اسمها أم العلاء: رَحِمَكَ اللهُ أَبَا السَّائِبِ شَهَادَتِي عَلَيْكَ فَلَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ .
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟» .
قُلْتُ: لَا أَذْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ فَمَنْ؟ - يعني من هذا الذي سيكرمه الله إن لم يكن عثمان بن مظعون - فقال النبي ﷺ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَاللهُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» .

جاء رجل إلى عائشة - رضي الله عنها - فقال: يا أم المؤمنين، ما تقولين في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] .

فقالت عائشة: «أما السابق بالخيرات فقوم سبقوا وشهد لهم رسول الله بالجنة، وأما المقتصد فقوم صاروا على أثره، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك» ^(١) .

= باب تقبيل الميت رقم (١٤٥٦)، كلهم من حديث عائشة . ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت حتى رأيت الدموع تسيل .

(١) أخرجه الطيالسي (١٤٨٩)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٠٩٤)، والحاكم (٤٢٦/٢)، (٤٢٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٧، ٩٧)، وقال: «وفيه الصلت بن دينار وهو متروك» .

هؤلاء هم المؤمنون الذي يخشون ذنوبهم سألت عائشة رسول الله في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة : يا رسول الله ، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر .

قال : « لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ » ^(١) .

إذا فخوف الملائكة وخوف المؤمنون بعد معاقبة الله لإبليس على ذنبه أعلى وأجل من خوفهم قبل أن يروا أخذ الله ، ومعاقبته لإبليس على ذنبه ، كما هو الشاهد حينما يرى العبيد الملك يهين عبداً منهم إهانة بالغة تبلغ منه كل مبلغ ، لا شك أن خوفهم بعد ذلك على خطئهم سيكون أشد قبل رؤيتهم لإهانة هذا الملك لهذا العبد على ذنبه وخطئه .

ومنها : أي من حكم خلق الله لإبليس : أنه تبارك وتعالى جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر على طاعته وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبي البشر آدم - عليه السلام - عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصي أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب ،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة « المؤمنون » رقم (٣١٧٥) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب : التوقي على العمل رقم (٤١٩٨) ، وأحمد في المسند (٦/ ١٥٩ ، ٢٠٥) ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٢) .

وجعل إبليس عبرة لمن أصر، وأقام على الذنب، وجعل آدم عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه، فله في هذا من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة.

ومنها: أي من هذه الحكم أيضًا: أن الله تبارك وتعالى قد جعل إبليس محكًا امتحن به خلقه، ليتبين به خبيثهم وطيبهم.

قد يقول قائل: ذكرت قبل ذلك مراتب القدر. وقلت: إن المرتبة الأولى هي: مرتبة العلم، وأن الله يعلم ما هو كائن وما سيكون فكيف تقول؟

والجواب: أن الله قد خلق إبليس ليجعله محكًا ليعلم به الخبيث من الطيب؟

واعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يتلى خلقه وعباده ليعلم الخبيث من الطيب! فالله علم الخبيث والطيب أولاً قبل أن يخلق الخبيث والطيبين، لكنه الممتحن، ليميز الخبيث من الطيب من الناس في الدنيا.. ليمحص الصف، وليجازي العباد وفق أعمالهم لا بمقتضى علمه فيهم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٢] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ^ع مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ع فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢، ٣] .

ومنها : أي من الحكم : أن يُظهر الله عز وجل كمال قدرته لخلقه، فالله عز وجل خلق جبريل وجعله رسولا للأنبياء ، فهو أمين وحي السماء الذي به حياة الأرواح ، وخلق ميكائيل ، وجعله على الأرزاق والأمطار التي بها حياة الأبدان ، وخلق إسرافيل ، ووكله بالصور الذي ينفخ فيه بأمر الله ، لتحيا الأبدان مرة أخرى ، ففيه حياة الأبدان بعد إماتة الله لها يوم القيامة ، وخلق سائر الملائكة ، وخلق إبليس والشياطين ؛ وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه ، فإنه خالق الأضداد كالسما والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث ، والضد إنما يظهر

حسنه بضده ، فلولا القبيح لم نعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم نعرف قدر الغنى .

وأضرب مثالا آخر : خلق الله عز وجل آدم من غير أب ومن غير أم ، خلق حواء من أب دون أم ، وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلق سائر البشر من أب وأم ؛ لنعلم أن الله على كل شيء قدير ، إن شاء أن يخلق بغير أب وبغير أم خلق ، وإن شاء أن يخلق من أب دون أم خلق ، وإن شاء من أم دون أب خلق ، وإن شاء أن يخلق من أب وأم خلق ؛ فإله سبحانه وتعالى يخلق الأضداد ليظهر كمال قدرته ومشيئته تبارك وتعالى .

ومنها : أنه سبحانه وتعالى يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ، ولا ريب أن أوليائه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن يحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها ، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

سبحانه من خلق الخلق بحكمته وعدله ، فما من شيء في الكون صغر أو كبر علمناه أو جهلناه ، رأيناه أم غاب عنا ، إلا وهو مخلوق لله بعدل وحكمة .

ومنها : أن المحبة ، والإنابة ، والتوكل ، والصبر ، والرضا إلى غير ذلك من هذه المعاني هي أحب العبودية إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذه العبودية لا تتحقق إلا بالجهد ، وبذل النفس لله ، وتقديم محبته سبحانه على كل ما سواه ، فالجهد بكل ما تحمله الكلمة من معنى هو ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

لو لم يخلق الله عز وجل إبليس ، فكيف تحقق مرتبة العبودية بجهدك لنفسك ولهواك وللشيطان ؟!

ومنها : أن من أساء الله : الحكيم ، والحكمة من صفاته سبحانه وتعالى ، وحكمته تستلزم وضع كل شيء في موضعه .

يقول ابن القيم في «المدارج»^(١) : الحكمة : هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، وأركانها : العلم والحلم والأناة ، وآفاتهما وأضدادهما ومعاول هدمها : الجهل والطيش والعجلة . هذا تعريف الحكمة بين البشر . فما ظنك بحكمة رب البشر ما ظنك بحكمة من أودع الحكمة الحكماء !!

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٠) ، ط دار الفكر العربي .

قال : ومنها : أن من أسماء الله : الحكيم ، والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي يليق به ، فاقترضت حكمته خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص .

يعني : من حكمته تبارك وتعالى أن يودع البشر صفات لم يودعها ربنا تبارك وتعالى في الخنزير أو في البهائم ، فالحكمة تقتضي أن يضع كل شيء موضعه ، وأن يضع لكل شيء صفاته وأحكامه التي لا تليق إلا به هو ، لا تليق في الوقت ذاته بغيره ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه .

قال ابن القيم - رحمه الله :

ومنها : أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعته وإكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائوه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتماه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كماله عليه الحمد التام^(١) ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة

(١) انظر : شفاء العليل (ص ٥١٤) .

البالغة ، والنعمة السابغة ، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته !!

وما ذكرنا من هذه الحكم قطرة من بحر ، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال الله وحكمته في خلقه لكل شيء ^(١) ، فإن كان الله تبارك وتعالى قد خلق إبليس لهذه الحكم التي وقفنا على بعضها ، فلا شك أن خلق الله لغير إبليس - وهو رأس الشر - لحكم كثيرة من باب أولى وأولى ، فالله تبارك وتعالى لم يُطلع خلقه إلا على بعض الحكم ، وهكذا . فالاحتجاج من الجبرية بالقدر احتجاج باطل مردود ، لا ينبغي أن يحتج به الكفار ولا العصاة .. لا ينبغي أن يحتج بالقدر الكفار على كفرهم وشركهم ، ولا العصاة على معاصيهم وذنوبهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أبطل حججهم ، يقول سبحانه وهو يرد على المشركين الذي احتجوا بالقدر على شركهم :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۚ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾  قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ

(١) شفاء العليل (٢٣٩) ، ط الفكر .

لَهْدَنُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩] .

فهذا جواب من رب العزة صريح لمن يحتج بالقدر على الشرك أو حتى على المعاصي والله الحجة البالغة ، وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح ؛ لأنه مبنيٌّ على أمرين عظيمين جليلين :
الأول : أن الله عز وجل أذاق الكافرين بأسه ، وأنزل بهم عقابه ، ولو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من الكفر والجرائم والمعاصي لما عذبهم الله ؛ لأن الله عَدْلٌ ولا يظلم أحداً .

فالظلم هو : وضع الشيء في غير موضعه ، وهذا نقص في حق فاعله ، ويقال له : ظالم ، فهل ينسب النقص إلى رب العباد ؟!
فالله منزّه عن كل نقص وعيب جلّ وتبارك وتعالى وتنزهه وتقدس .
هذا هو الأمر الأول .

فالذي يحتج بالقدر على الكفر وعلى المعصية واحد من اثنين :
إما أن يكون مؤمناً بالله تبارك وتعالى ، وإما أن يكون منكراً لوجود الله أصلاً أو كافراً ؛ فإن كان مؤمناً بالله تبارك وتعالى مؤمناً بأسمائه الحسنة وصفاته العلى لزمه أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله عدل ومنزه عن الظلم . هذا هو المؤمن ؛ لأن الظلم نقص لا يليق به ، والله سبحانه

وتعالى لا يعتريه نقص بحال ، ولا شك أن عقاب المكروه على الفعل ظلم فلو أكرهتني على فعل شيء ثم عاقبتني على فعل نفس الشيء ، فهذا ظلم ، والله تبارك وتعالى منزّه عن الظلم .

أما الصنف الثاني : أن يكون كافرًا منكرًا لله تبارك وتعالى ، وهذا لا ينبغي له أن يجادل في القدر أو أن يهاك بالقدر ، بل يجب عليه أصلاً أن يناقش الأصل الأول وهو الإيمان من عدمه ، فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان بالله سبحانه وتعالى . هذا هو الأمر الأول .

الأمر الثاني : وهو أمر مهمٌ جدًا أن المحتج بالقدر على الشرك والمعاصي متقول على الله بغير علم ؛ إذ كيف يصح للكافر أو العاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه قبل كفره ومعصيته ، وقدر الله غيب لا يعلمه إلا الله ، مع أن هذا العبد الكافر أو العاصي مخاطب قبل كفره بالإيمان وقبل معصيته بعدم الوقوع في المعصية ، أو بعبارة أخرى أقرب : كيف يصح لرجل أن يقول : كتب عليّ ربي أن أسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره ؟ فهل اطلع على اللوح المحفوظ فقرأ ما فيه حتى يعلم ما كتب الله عليه في وقت كان فيه مخاطبًا بالامتناع عن السرقة ؟!

فهو قبل أن يسرق مخاطب من الله بعدم السرقة ، ثم هو مخاطب من

الله تبارك وتعالى بعد السرقة بالتوبة ، وبمثل هذه الحجة يقول ربنا تبارك وتعالى ردًا على المتذرعين بالقدر في القوع في المعاصي : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨] .

يا الله ﴿ قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تقول على الله بغير علم .

فالقول الفصل في هذه المسألة أن الله عز وجل أمر المكلفين ونهاهم ، وحدّ لهم حدودًا ، ومقتضى العبودية أن يمتثلوا الأمر ، وأن يجتنبوا النهي ، وأن يقفوا عند الحدّ . هذا ما كلفهم وتعبدهم به ربهم جلّ وعلا ، ولم يكلفهم سبحانه وتعالى أن يعلموا الغيب والمشئّة وما قضاه الله وقدره ليكيّفوا أنفسهم وظروفهم على قدره ومشئته ؛ بل ما عليهم إلا أن يطيعوا وهم في غاية الحب لله ، والرضا عن الله ، وهو سبحانه وتعالى يعينهم ، ويهديهم ويشرح صدورهم وهذا حسبهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

فاعلم بأنك مطالب قبل الفعل وبعد الفعل بطاعة الله وعدم معصيته ، فإن أطعت الله فعليك شكره ؛ إذ هداك ووفقك ، وإن عصيت الله ، فالواجب عليك أن تتوب وأن ترجع إليه وأنت في غاية الحب لله والرضا عن الله والبغض في الوقت ذاته للمعصية والذنوب ، وأنت على يقين مطلق في عدل الله وحكمته ، فالله تبارك وتعالى يحب الإيمان والطاعات ويكره الكفر والمعاصي .

فواجب عليك أن تدور في هذا الفلك أن تحب ما أحبه الله ورسوله وأن تبغض ما أبغضه الله ورسوله ، فالله يحب الإيمان ولا يرضى الكفر لعباده قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] .

الاحتجاج بالقدر على ترك العمل

إنَّ شبهة الاحتجاج بالقدر على ترك العمل شبهة قديمة حديثة ،
فهؤلاء الذين ضلُّوا في هذا الباب يحتجون بالقدر قبل العمل وبعد
العمل فهم يحتجون بالقدر قبل وقوعه على ترك الأعمال بدعوى : أن
الإيمان بالقدر لا يحتاج معه العبد إلى العمل والأخذ بالأسباب ؛ لأن
ما قدره الله تبارك وتعالى له سيأتيه لا محالة ، حتى وإن لم يفعل
الإنسان شيئاً يأخذ بالأسباب ، ويحتجون بالقدر على ما يرتكبونه
من الآثام والمعاصي والذنوب ، كالزنا وشرب الخمر والكفر وغير
ذلك بدعوى أن كل ما خلقه الله تبارك وتعالى فقد أَراده ورضيه وأحبه
الله عز وجل ، بهذه الدعوى يحب الكفر ويحب الزنا ويجب شرب
الخمر إلى آخر ذلك . تعالى الله عما يقول هؤلاء الضلال علواً كبيراً .

ولا شك أن هذه العقيدة الفاسدة الباطلة المنحرفة قد أضلت
عقولا كثيرة وعطلت الطاقات والإمكانات في الأمة ، وشكلت هذه
العقيدة المنحرفة شللاً وتعطيلاً لكثير من القدرات والإمكانات في
المجتمع الإسلامي هؤلاء الذين تركوا العمل بدعوى أن الإيمان
بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى أي عمل أو إلى أي أخذ بالأسباب .

لقد أثبتوا بهذه العقيدة الفاسدة - كما ذكرت - أن الله تعالى قد أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقه وعقوق الوالدين ، وغير ذلك من المعاصي والذنوب بدعوى : أن كل شيء خلقه الله يرضاه ويجبهُ وهذا فهم باطل - كما سأبين - إن شاء الله تعالى .

وقد بينت أن من آثار هذه العقيدة المنحرفة أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى الجنة وتنجيهم من النار ، وارتكبوا الكثير من الموبقات بدعوى أن القدر آت آت ، وأن كل ما قدره الله للعبد سيصيبه ، إذن لماذا العمل ؟ ولماذا التعب ؟ ولماذا النصب ؟!

رضي كثير من هؤلاء أن يفهموا من باب القدر ما يوافق عقولهم الضالة في الوقت الذي أنكر فيه هؤلاء ما يحتاج به عليهم في هذا الباب من خلال قولهم هم ، فهم يحتجون بالقدر إن وقع أحدهم في الظلم وفي الذنب ، يقول : هذا قدر الله ! فإن وقع عليه ظلم من غيره يرفض أن يقال له : هذا قدر الله ! ويحتج بالظلم لذاته إذا زنى أو سرق أو شرب الخمر أو ظلم ، يقول : هذا قدر ، وإن ظلم وأخذ يرفض البتة أن يقال : هذا قدر !!!

هذا الفهم الباطل بني على فهم سقيم ، وضرب لكتاب الله تبارك وتعالى ببعضه البعض ، وضرب لأحاديث النبي ﷺ ببعضها البعض

هذا التأصيل الفاسد لا بد وأن تترتب عليه هذه النتائج الفاسدة .

وتعرض شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - لهذا الفريق الضال في هذا الباب وبين انحراف معتقدهم الفاسد في « كتاب القدر » في المجلد الثامن من « مجموع الفتاوى » .

قال : « هؤلاء رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها ، فهو خالق أفعال العباد ومريد الكائنات ، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر ، ولا عرفان ولا نكران ، ولا حق ولا باطل ، ولا مهتد ولا ضال ، ولا راشد ولا غوي ، ولا نبي ولا متنبئ ، ولا ولي لله ولا عدو ، ولا مُرضٍ لله ولا مسخوط ، ولا محبوب لله ولا ممقوت ، ولا بين العدل والظلم ، ولا بين البر والعقوق ، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار ، ولا بين الأبرار والفجار ، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة ، والخلق العام فشهدوا المشترك بين المخلوقات وعموا عن الفارق بينهما » ^(١) .

فهؤلاء كالأعور إذ رأى جانباً من جانبي الحقيقة وعمى عن

الجانب الآخر !!!

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥٩، ٦٠) .

وقال أيضًا شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى :

« فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل ، بل بين جميع الخلق ، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات ، ولم يفرق بين المأمور والمحظور ، والمؤمنين والكفار ، وبين أهل الطاعة وأهل المعصية ، لم يؤمن بأحد من الرسل ، ولا بشيء من الكتب ، وكان عنده آدم وإبليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء ، والسابقون الأولون والكفار سواء » ^(١) .

وقال أيضًا - رحمه الله :

« من يقر بتقدم علم الله وكتابه ، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي ، والعمل وأنه لا يحتاج إلى العمل ، بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة بلا عمل أصلاً ، ومن قضى له بالشقاوة دخل النار بلا عمل أصلاً . قال : فهؤلاء أكفر من هؤلاء - يعني : من المكذبين بالقدر - وأضل سبيلاً ، ومضمون قول هؤلاء : تعطيل الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، وهؤلاء أكفر من

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٠) .

اليهود والنصارى»^(١) .

وقال أيضًا :

« هؤلاء القوم إذا أصرّوا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر وبالنهى ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، لكنهم حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض »^(٢) .

فلا يجوز لأحد أبدا أن يحتج بالقدر على إبطال الأمر والنهى بدعوى ما سيقدّره الله سيكون هذا حق ، لكن من أي جانب فهم هذا الذي يزعم الإيمان بالقدر أنه يحل له أن يبطل الدين كله ، فلا أمر ولا نهى ولا وعد ولا وعيد من أين له هذا الفهم ؟ هذا يدل على أن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة . نعوذ بالله من الخذلان ، حتى قال بعضهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غيابته الجنين

تدبر معي هذا التأصيل المهم لأهل السنة من المحققين من علماء

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٨٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٦٢) .

السلف ، لقد غاب عن هؤلاء الذين احتجوا بالقدر على نفي الأمر والنهي والوعد والوعيد : أن الله تبارك وتعالى كما قدر المسببات قدر الأسباب ، فالسبب من القدر وكما قدر النتائج فقد قدر لهذه النتائج مقدمات لا يمكن أبداً أن تتحقق هذه النتائج بدونها .

ما من شيء في الدنيا إلا بسبب ، والله تعالى خالق الأسباب والمسببات .

وجيء برجل لعمر بن الخطاب ليقم عليه الحد ، لارتكابه كبيرة من الكبائر ، فلما أقام عليه الحد عمر - رضي الله عنه - احتج هذا الغبيُّ بالقدر ، فقال : هذا أمر قدره الله تعالى عليّ ، فأنا ما ارتكبت هذا الذنب إلا بقدر ، فرد عليه الفاهم لمрад الله ورسوله - عمر - وقال : وأنا أقم عليك الحد بقدر !!

هذا هو الفهم الصحيح فلا ينبغي أن تحتج بالقدر على تعطيل الأمر والنهي ، وتعطيل الوعد والوعيد ، غاب عن هؤلاء أن الله قد خلق الأسباب والمسببات ، فالأسباب قدر ، والمسببات قدر ، والنتائج قدر ، والمقدمات لهذه النتائج قدر ، فكل بقدر .

نصر الأمة مثلاً : من زعم أن الله تعالى قدر هذه النتيجة ، ألا وهي : نصر الأمة بدون سبب ، أي : بدون امتثال الأمة للأمر والنهي ،

وبدون تحقيق الأمة لشروط النصر ! من زعم ذلك ، فقد أعظم الافتراء على رب الأرض والسماء ؛ فإن الله تعالى خلق الكون ، وأودع الكون أسباباً ، هذه الأسباب والسنن لا تحابي أحداً من الخلق بحال ، فمن أخذ بالأسباب أعطته هذه الأسباب نتائجها ، ومن بذل المقدمات أعطته هذه المقدمات نتائجها ، والله تبارك وتعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، وهو خالق المقدمات والنتائج .

فإذا قدر الله عز وجل أن يرزق فلاناً من الناس ، فقد قدر الله تعالى في الوقت ذاته لهذا الرزق أسباباً ، فمن ادّعى بعد ذلك أنه لا حاجة له إلى طلب الرزق ، وأن ما قدر الله عز وجل له من رزق سيأتيه سعي أو لم يسع ، هذا لم يفقه قدر الله في عباده ، ولم يفهم مراد الله ولا مراد رسوله ﷺ ، وهل هناك عاقل على وجه الأرض إذا عطش وتألم من العطش وأحضر له الماء ووضع بين يديه يقول : العطش بقدر ولن أشرب ما دام الله قدر عليّ العطش ؟! هل يقول هذا عاقل دون أن يمد يده لكأس الماء ليأخذ بالسبب ؟!

إذا لابد أن نعلم أن الله قدر المسبب والسبب وقدر النتائج والمقدمات ، فإذا قدر الله سبحانه أن يرزق فلاناً ولدًا فإنه سبحانه وتعالى يقدر له في الوقت ذاته أن يتزوج ، وأن يعاشر امرأته ويقدر له

سبحانه وتعالى الولد ، فالأسباب أيضًا من قدر الله ، قدَّر في الأزل أن فلانًا سيصاب بمصيبة ، وقدر له في الأزل أنه سيدعو دعاء يقبله فيرفع بهذا الدعاء هذا البلاء وكلاهما قدر فلو فهمنا هذا الفهم زالت إشكالات كثيرة .

نسأل الله أن يرزقنا فهمَ النبي ﷺ وفهم أصحابه إنه على كل شيء قدير .

وهكذا فمن ادَّعى أن المسببات تقع من غير أسباب !! وهو لم يعرف قدر الله تعالى ولم يفقه دين الله عزَّ وجل ، وهو كمن يزعم بأن الولد يأتي من غير سبب ، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب ولا بذر، وأن الشبع يحدث بغير طعام ، وأن الري يحدث من غير تناول شراب .

فإن قال قائل : إن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم - من غير سبب - وخلق عيسى من أم دون أب بغير سبب فهذا أيضًا قدر الله سبحانه وتعالى ؛ ليبين للخلق كمال قدرته وتمام مشيئته في أنه لو أراد ، كان ما أراد ولو بدون سبب حتى لا تضرب النصوص بعضها ببعض .

فالله قادر ، وهذه هي الإرادة الكونية ، فما أراد الله كان وما لم يُرد لم

يكن ، فالله سبحانه وتعالى ؛ يظهر كمال قدرته ، بل وإطلاقة قدرته ،
وتمام مشيئته سبحانه خلق آدم من غير أب ولا أم : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾
[يس: ٨٢] وخلق حواء من أب وأم ، وخلق عيسى من أم دون أب ،
وخلق سائر الخلق من أب وأم ؛ ليعلم الخلق جميعاً أنه على كل شيء
قدير ، إن شاء أن يخلق من غير أب خلق ، وإن شاء أن يخلق من غير
أم خلق ، وإن شاء أن يخلق ، من أم وأب خلق ، فله تمام المشيئة وتمام
القدرة ، وإنه على كل شيء قدير .

ونصوص القرآن والسنة كثيرة في هذا الباب ، تدبر معي قول الله
تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ
اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] .

فلو لم يكن الأخذ بالأسباب مأموراً به من قِبَل خَالِقِ الأسباب
والمسببات ما كان لهذه الآيات في كتاب الله معنى على الإطلاق ، والله
سبحانه وتعالى جل وتبارك يأمر بأمر لا معنى له ، وجل وتبارك أن
يخلق خلقاً بلا حكمة وجل تبارك أن يأمر بلا مصلحة قال سبحانه :
﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رَبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿[الأنفال: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

[البقرة: ١٩٧]

وقال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾

[الأعراف: ١٢٨]

آيات كثيرة يأمر الله سبحانه وتعالى فيها باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه ومرضاته وجنته ، بل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة .

فالأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر ، فالأسباب من قدر الله عز وجل .

روى الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم - وهو حديث ^(١) ضعيف .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء لا ترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئاً (٢١٤٨) ، وابن ماجه في كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٣٤٣٧) ، وأحمد (٤٢١/٣) ، والبيهقي في الكبرى (٣٤٩/٩) وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي وابن ماجه .

عَنْ أَبِي خِزَامَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَرَأَيْتَ أَدْوِيَّةً نَتَدَاوَى بِهَا
وَرُقَى نَسْتَرْقِي بِهَا ، وَتُقَى نَتَقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟
قَالَ : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » .

وأصح منه ما في « الصحيحين » ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْعَ لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ : أَبُو
عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ : فَقَالَ عُمَرُ : ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ
وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ
خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا تَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ
وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَرَى أَنْ تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَقَالَ :
ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي الْأَنْصَارِ فَدَعَوْهُمْ لَهُ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا
سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ :
ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ ، فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقَدِّمَهُمْ عَلَى
هَذَا الْوَبَاءِ ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ : إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ ،
فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩) وانظر طرفاه هناك ،
ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩) .

يَا أَبَا عُبَيْدَةَ - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ : نَعَمْ ، نَفَرُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطْتَ وَإِدْيَا لَهُ عُذْوَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ، قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ أَنْصَرَفَ .

ففي الحديث يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه : « نَفَرُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ » أي : نفر من هذه الأرض التي حل بها الوباء ونذهب إلى غيرها أخذًا بالأسباب وهي بقدر الله .

والمؤمن يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا عدوى ، وأن أمر المرض والشفاء كله من عند الله ، وأنه لا عدوى مؤثرة بذاتها ، ومع ذلك يفر من المجزوم فراره من الأسد ؛ كما أخبر النبي ﷺ ؛ ففي البخاري ومسلم ^(١) أنه ﷺ قال : « لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرٌ وَلَا هَامَةٌ » ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الطَّبَّاءُ فَيَجِيءُ الْبَعِيرُ الْأَجْرُبُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب لا صفر ، وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧) وانظر :

(٥٧٠٧) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢٠)

من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَجْرِبُهَا كُلَّهَا ؟ قَالَ : « فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلِ ؟ » .

فهذا في الاعتقاد . أما في باب العمل ؛ فقد قال ﷺ : « وَفِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ » ^(١) .

وقال ﷺ : « لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ » ^(٢) .

وإنبات الثمر مقدر بإذن الله ، ومع ذلك لابد من رعاية الزرع والاهتمام به ، وفعل ما يصلحه حتى يثمر إن شاء الله أخذًا بالسبب .

ففي صحيح مسلم ^(٣) من حديث مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَرَزْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ . فَقَالَ : « مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ ؟ » فَقَالُوا : يُلَقِّحُونَهُ يُجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيُلْقَحُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا » قَالَ : فَأَخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكَوهُ ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ : « إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا ، فَلَا تَوَّأخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦١) ، ورواه عن رابع بن خديج (٢٣٦٣) وأنس (٢٣٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب الجزام (٥٧٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب لا عدوى (٥٧٧٤) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢١) .

شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وحياة النبي ﷺ وحياة أصحابه إنما هي ترجمة عملية لهذا الفهم الرائق الراقى الصحيح في باب القدر في وجوب الأخذ بالأسباب ووجوب الدخول في العمل .

ومن أجمل ما قاله سهل بن عبد الله التستري – رحمه الله تعالى – وأرجو أن تتدبروا هذا الكلمات :

« من طعن في الأسباب فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ ، والدخول في الأسباب سنة النبي ﷺ ، فمن عمل على حاله فلا يترك سنة^(١) » يعني : من أراد أن يتوكل على الله كما كان يتوكل سيد المتوكلين النبي ﷺ فيجب أن يكون على سنة سيد المتوكلين في الدخول في الأسباب ، فالأخذ بالأسباب سنة النبي ﷺ .

فمن أعظم توكلًا على الله من النبي ﷺ؟! لا أحد ، ومع ذلك قاتل يوم أحد بدرعيه ، ومع ذلك ما سافر سفرًا إلا حمل الزاد معه ، وركب على الراحلة وأخذ بكل أسباب الحيلة يوم الهجرة ، فالتجّه إلى المدينة

(١) انظر : مدارج السالكين لابن القيم (٢/١١٣) ، ط دار الحديث .

إن كان في مكة لابد أن يتجه شمالاً ، لكن النبي ﷺ اتجه جنوباً ؛ لأن الباحثين عنه وعن صاحبه سيتجهون شمالاً ، فاتجه جنوباً .

انظر إلى أسباب الحيلة ، واختبأ في الغار ، وأعد الزاد ، وأعد الراحلتين ، واستأجر الدليل المشرك ... إلى آخر هذه الأسباب ، فلم يترك النبي ﷺ سبباً من الأسباب وهو سيد المتوكلين على الله .

فالتوكل على الله تعالى لا ينافيه أن تأخذ بالأسباب ، بل إن الدخول في الأسباب من التوكل ، وإنه لا يُوجب البتة أن نترك العمل ، بل يوجب على المسلم أن يجتهد وأن يجد ، وأن يأخذ بالأسباب لتحقيق ما يطمع إليه مادامت الأعمال مقدرة ، وقد جفَّ القلم منها منذ الأزل ، ولما سألوا رسول الله : فقيم العمل إذن ؟

فقال رسول الله ﷺ : «اعْمَلُوا فكلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل: ٥ - ٧] ^(١) .

قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] .

ولا شك أن الجزاء من جنس العمل دل على هذه القاعدة كثير من

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٧) ، من حديث علي بن أبي طالب .

آيات القرآن وكثير من أحاديث النبي ﷺ .

ولقد قال أحد الصحابة لما سمع أحاديث النبي ﷺ في القدر : والله ما كنت بأشد اجتهادًا مني في العمل بعد الآن ^(١) .

يعني : أنا الآن سأجتهد في العمل فقد فهم مراد الله ومراد النبي ﷺ وعَلِمَ أن الإيمان بالقدر لا يمنحه أجازة مفتوحة ليترك العمل ، وإنما يوجب عليه أن يأخذ بالأسباب وأن يدخل في العمل ، وأن يحرص على الجد والاجتهاد وتحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة في الوقت الذي لا يتعلق فيه قلبه بالأسباب ؛ لأن الأسباب وحدها لا تضر ولا تنفع ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب تبارك وتعالى .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نعرف التوكل لابن القيم :

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله :

« الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون

أسباب نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في

الشرع .

(١) «أعلام السنة المنشورة» للحكمي (٦٢، ٦٣ ط الهدي النبوي) .

والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان ذلك الكلام كما قال شيخ الإسلام : « إن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ؛ لأنه ليس مستقلاً ، ولا بد له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يُسَخَّرْ » ^(١).

فمثلاً : رجل موظف ويرى أن فلاناً الذي وظفه وهو صاحب الشركة هو سبب رزقه ؛ إن التفت هذا الموظف بقلبه إلى هذا السبب ، واعتقد اعتقاداً جازماً أنه لولا هذا السبب ما رُزِقَ فقد أشرك بالله ، فالالتفات إلى السبب شرك في التوحيد ، ومعناه : اعتماد القلب عليه ورجاء القلب لهذا دون الالتفات إلى مسبب السبب فهذا السبب - صاحب الشركة - إن لم يسخر ربنا تبارك وتعالى قلبه لك ما سُخِّرَ فكيف تعلق قلبك بمن لا يملك قلبه ؟! كيف تُلَفْتُ قلبك إلى من لا يملك قلبه ؟ .

نعم : اعلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه فقد يتحول القلب من الحب إلى البغض ومن البغض إلى الحب في لحظات لا يعلمها إلا رب الأرض والسماوات : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٦٩/٨) .

[الأنفال: ٢٤] . ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] .

ولذلك قال النبي ﷺ :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلَّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » ^(١) .

اللهم ثبت قلوبنا على دينك وطاعتك حتى نلقاك يا رب الأرض والسماء .

والله لو لم يُسَخَّرِ الله لك القلوب بالحبِّ ما أحبتك ، ولو لم يُسَخَّرِ الله إليك الأبدان بالميل ما مالت ، وكذلك إن لم يسخر الله الأسباب ما سُخِّرَتْ إن كان ذلك كذلك فلا تعلق قلبك بالأسباب في الدنيا ، فلا يوجد مخلوق في الأرض يستحق أن يصرف الإنسان قلبه إليه بصدق الاعتماد عليه ، ما دامت الأسباب كلها لا تضر ولا تنفع ولا تبرزق ولا تمنع إن لم يسخرها مسبب الأسباب الذي على العرش استوى .

فالؤمن بالقدر من أسعد الخلق ؛ لأن عنده عقيدة جازمة لا لبس فيها ولا تعصف بها ريح الشكوك أبداً بأن الله سبحانه قدَّر الأسباب والمسببات ، ويعلم يقيناً أن الضار النافع هو الله ، وأن الرازق المانع

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء رقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

هو الله ، وأن القابض الباسط هو الله ، وأن المعز المذل هو الله ، وأن الذي يملك هذا الشخص الذي أخافه وأخشاه هو مُسببُ الأسباب القادر على أن يُحوِّل قلبه وجوارحه .

أما من تلاعب بالقدر شقى به في الدنيا قبل الآخرة ؛ لأنه يضرب آيات الله بعضها ببعض ، ويضرب أحاديث النبي ﷺ بعضها ببعض ، فسيظل في ضنك وشقاء وحسرة وتردد فضلاً عن خسرانه في الآخرة .
نسأل الله عز وجل أن يثبتنا على الإيمان الذي يُرضيه ، حتى نلقاه إنه وليُّ ذلك ومولاه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله :

« فكلُّ سببٍ له شريكٌ وله ضدٌّ ، فإن لم يعاونه شريكُه ولم يُصَرَفْ عنه ضدهُ لم يحصل سببه » ^(١).

فالمطر لو نزل على أرض صلبة لا يُنبِت ؛ لأنه لا بد للسبب من شريك كالهواء والتراب والبذرة ، ثم الزرع لا ينمو حتى تصرف عنه كل ذلك الأضداد وهي الآفات التي تفسده .

إذاً لا بد له من شريك ولا بد له من أن يتنفي الضد ، الأرض موجودة ، والتراب والبذرة موجودة ، ولكن فيه مفسدات للنبات ،

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٧) .

فلن ينبت ، والطعام والشراب لا يثمر ويغذي إلا بمعاونة الشركاء ، وهي أسنان وقواطع تقطعه ، وأنياب تمزقه ، وضروس تطحنه ، ولسان يتحرك ، ولُعَابٌ يُسهل ، ومريء يعمل ، وأمعاءٌ دقيقةٌ ، وأمعاء غليظة ، وبنكرياس ، وغير ذلك لا بد من وجود هؤلاء الشركاء ، حتى يحصل أو يثمر السبب ثم تنتفي الأضداد من المفاسد التي قد تفسد هذا الطعام والشراب من مرض ونحوه .

يقول شيخ الإسلام :

« فكل سبب له شريك وله ضد ، فإن لم يعاونه شريكه ويُصرف عنه ضده لم يحصل سببه ، فالمطر وحده لا ينبت إلا بما انضم إليه من الهواء والتراب ، ثم الزرع لا ينمو حتى تُصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جُعِلَ في البدن من الأعضاء والقوى ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تُصرف المفسدات » ^(١) .

وهكذا لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحاً لأمكن لكل أحد أن يقتل من يشاء وأن يأخذ ما يريد وأن يظلم من يريد ، فإذا سئل عن كل أفعاله يقول : قدر !!! إذن لفسد الكون كله ، ولأمكن لكل واحد أن يفعل ما شاء محتجاً بالقدر كهؤلاء الذين يحتجون بالقدر - كما

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٦٧) .

ذكرت - على فسقهم وظلمهم وانحرافهم وزيفهم ، ثم يثرون إذا ما وقع عليهم هذا الظلم ، ولا يرضون من غيرهم أن يحتجوا على ظلمهم بالقدر كما احتجوا هم لأنفسهم بالقدر !!! .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله رحمة واسعة وطيب ثراه :

« العبدُ له في المقدورِ حالان : حالٌ قبلَ القدر ، وحالٌ بعدَ القدر ، فعليه قبلَ المقدورِ الذي قدره العزيزُ الغفور أن يستعين بالله وأن يتوكلَ عليه وأن يدعو ربه ، فإذا قدر الله المقدورَ بغير فعله ، فعليه أن يصبرَ عليه أو يرضي به ، وإن وقع المقدور بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك ، وإن كان ذنبًا استغفر الله من ذلك ، وله في المأمور أيضًا حالان : حال قبل الفعل وهو العزمُ على الامتثال والطاعة والاستعانة بالله على ذلك » ^(١).

بمعنى : أن الله تعالى يأمر بالصلاة والزكاة ويأمر بالتقوى وغيرها من الأوامر . فعليك قبل الأمر أن تسأل الله ، وتستعين به على أن يرزقك التقوى ، وعلى أن يعينك على الصلاة والزكاة ، وعلى أن يوفقك للحج ، وأن يوفقك لحضور مجالس العلم ، هذا حالٌ قبل الفعل .

(١) مجموع الفتاوى (٨/٧٦، ٧٧) .

ثم قال : « وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] .

فأمر الله عز وجل نبيه أن يصبر على المصائب المقدرة وأن يستغفر من الذنب » .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] .

فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب .

قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم^(١) من حديث أبي هريرة قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« ... اخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » .

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم (٢٦٦٤) .

فالقدر يُحتجُّ به في المصائب ولا يُحتجُّ به في المعائب ، فالعبدُ المؤمنُ
يحتجُّ بالقدر إن وقع في المصائب ، ولا يحتجُّ بالقدر في المعائب لا قبل
وقوعها ولا بعد وقوعها .

وقد يستدل بعضهم بحديث احتجاج آدم وموسى - على نبينا
وعليهما الصلاة والسلام - وهو في «الصحيحين» ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« اَحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَام - عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ،
قَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ،
وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ
بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ
بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَحَ فِيهَا تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا ،
فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ
عَامًا ، قَالَ آدَمُ : فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١] قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ
عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْلِقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند الله رقم (٦٦١٤) ، ومسلم في
كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - رقم (٢٦٥٢) .

«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

ليس في هذا الحديث إطلاقاً حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والذنوب والمعاصي بدعوى أن آدم احتج بالقدر على معصيته ، كلا ! فآدم - عليه السلام - وهو نبي الله تعالى لم يحتج بالقدر على الذنب وموسى - عليه السلام - لم يُلَمَّ أباه آدم على ذنب تاب منه ، وتاب الله عليه منه ، وهدهاه واجتباها ، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولاده من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة ، فإن القدر يُحْتَجُّ بِهِ عند المصائب لا عند المعائب .

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ؛ كما قال تعالى :
﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

[البقرة: ١٥٦]

أما المذنبون فليس لهم الاحتجاج بالقدر ، بل الواجب عليهم أن يستغفروا الله بعد الوقوع في الذنب كما قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعائب ^(١).

(١) بتصرف يسير من شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٥٤) ، ومنهاج السنة (٢/ ١٠) ، والقضاء

والقدر للمحمود (٤٢٢) ، ومجموع الفتاوى (٨/ ١٠٧) وما بعدها ، وشفاء العليل (١٨) ط الفكر .

قال ابن القيم^(١) - رحمه الله :

«الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ،
فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم ،
فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته
وذكرها ما ينفع به الذاكر والسامع ؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً ،
ولا يبطل به شريعة ، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد
والبراءة من الحول والقوة ، يوضحه أن آدم قال لموسى : « أَفَتَكُونُ
عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ » فإذا أذنب الرجل
ذنبا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى كأن لم يكن فأتته مؤنّب عليه
ولامه ، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ، ويقول : هذا أمر كان قد
قدر عليّ قبل أن أخلق ، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً ، ولا ذكره حجة له
على باطل ولا محذور في الاحتجاج به ، وأما الموضع الذي يضر
الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل ، بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك
واجباً فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ،
فيبطل بالاحتجاج به حقاً ويرتكب باطلاً ، كما احتج به المصريون على
شركهم وعبادتهم غير الله » .

(١) شفاء العليل (٤٦) ط الحديث .

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن سبب ضلال من ضل في باب القدر هو سوء الفهم عن الله ورسوله ، وهو أصل كل بدعة وضلالة نشأت في القديم والحديث ، فهؤلاء يخلطون بين الإرادة القدريّة الكونية وبين الإرادة الدينيّة الشرعيّة .



**أنواع الإرادة في كتاب الله
كما يرى علماء السلف**

أنواع الإرادة

في كتاب الله كما يرى علماء السلف

المحققون من علماء السلف يقولون بأن الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة كونية قدرية ، وإرادة دينية شرعية :

أما الإرادة الشرعية :

فهي الإرادة المتضمنة للمحبة والرضا ، والإرادة الكونية القدرية هي المشيئة النافذة الشاملة التامة التي تشمل جميع الموجودات .

أما الإرادة الشرعية الدينية :

هي المرادة في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] هذه إرادة شرعية دينية قال تعالى : ﴿ ۞ يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ۞ [المائدة: ٦] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ۞ [النساء: ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخْشَوْا اللَّهَ تَعَالَى ۚ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۞ [النساء: ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

أَلْبَيْتِ ﴿ [الأحزاب: ٣٣] هذه الإرادة الشرعية الدينية هي الإرادة المتضمنة للمحبة والرضا ، فهذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة وهي الإرادة الكونية .

قال العلامة ابن تيمية شيخ الإسلام - رحمه الله :

« هذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد ، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة ، وهذه الإرادة أي : الشرعية الدينية تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر ، ولا يأمر بها ولا يرضاها ، وإن كان شاءها خلقاً وتقديرًا وإيجادًا ، وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية ويثيب أصحابها ، ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وينصر بها . أي : الإرادة الدينية الشرعية العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين » ^(١).

« أما الإرادة الكونية القدريّة وهي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن هذه الإرادة ؛ كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ^ص وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٨٨/٨) ، وانظر : شرح الطحاوية (ص ١١٦) .

يُضِلُّهُ، تَجْعَلْ صَدْرَهُ، ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴿

[الأنعام: ١٢٥]

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤].

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

[البقرة: ٢٥٣]

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩].

هذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات ، فكل الحوادث الكونية داخلية في مراد الله ومشيتها هذه ، وهذه الإرادة الكونية القدريّة يشترك فيها المؤمن والكافر والفاجر ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه ، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلي عليهم هو وملائكته ، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم الله ويلعنهم اللاعنون «^(١) .

فأهل السنة والمحققون من علماء السلف فقهوا دين الله تبارك وتعالى حق الفقه ، ولم يضربوا كتاب الله بعرضه ببعض ، وعلموا أن

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٨) ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص ١١٦) .

أحكام الله عز وجل في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين ، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً ، ومن نظر إلى الشرع دون القدر وإلى القدر دون الشرع ضل وأضل .

نعوذ بالله تعالى من الخذلان ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على المعتقد الحق الذي كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه .

وما أجمل وأحلى وأجل أن أختتم الكلام في هذا الباب بكلمات جميلة رقراقة جداً للإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى - في عقيدته المشهورة المعروفة الموسومة بالعقيدة الطحاوية .

يقول الطحاوي - رحمه الله تعالى - في القدر :

« خلق الله الخلق بعلمه وقَدَّرَ لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً ولم يخفَ عليه شيءٌ قَبْلَ أن يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ ما هُمْ عاملون قَبْلَ أن يَخْلُقَهُمْ ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وَكُلُّ شيءٍ يجري بتقديره ومشئته ، وَمَشِئَتُهُ تَنْفُذُ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء الله لهم ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فضلاً ، ويضل من يشاء ، وَيُخْذِلُ وَيَبْتَلِي عدلاً ، وكلهم مُتَقَلِّبُونَ في مشيئته بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، ولا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ ، ولا غَالِبَ لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلاً من عنده » ^(١) .

(١) العقيدة الطحاوية بشرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني (ص ٢١) .

« وقد علم الله فيما لم يزل عدَدَ من يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، فلا يُزَادُ في ذلك العدد ولا يُنْقُصُ منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه وَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيدُ من سَعِدَ بقضاء الله ، والشقي من شَقِيَ بقضاء الله .

وأصل القدر : سر الله تعالى في خلقه لم يَطَّلِعْ على ذلك ملكٌ مقربٌ ولا نبي مرسل ، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلانِ وسلمُ الحرمانِ ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] .

فمن سأل لم فعل ؟ فقد ردَّ حُكْمَ الكتاب ومن ردَّ حُكْمَ الكتاب كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم ؛ لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقودٌ ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك العلم المفقود .

ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد قُدِّرَ ، فلو اجتمع الخلقُ كُلُّهُمْ على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن ؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله فيه ؛ ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه ، جَفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سَبَقَ عِلْمُهُ في كل كائنٍ من خلقه فقدر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا ليس فيه ناقص ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه ؛ وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] .

فويل لمن صار في القدر لله خصيًّا ، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًّا كتيًّا ، وعاد بما قال فيه أفَّاكًا أثيًّا ^(١) .

أسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن يرزقنا الإيمان

(١) انظر متن العقيدة الطحاوية .

بالقدر خيره وشره ، وأن يرزقنا علمًا نافعًا ، وأن ينفعنا بما عملنا ، وأن يرزقنا الصواب والرشاد ، وأن يجنبنا الخذلان والزيغ والزلل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



ثمرات الإيمان بالقدر

ثمرات الإيمان بالقدر

إن عقيدة الإيمان بالقدر التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه مبرأة من التخاذل ، والتكاسل ، والخمول ، والإعراض عن العمل ، والأخذ بالأسباب ، الذي أصاب فئة كبيرة من أبناء الأمة ممن أساءوا فهم عقيدة القدر ، فسوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، قديماً وحديثاً ، فمن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام ، وعلمها النبي ﷺ لأصحابه - رضي الله عنهم - وجد فيها ثماراً طيبة كثيرة ، كانت وما زالت سبباً في إصلاح الفرد والمجتمع الإسلامي ، وقد قطفتُ من هذا البستان اليانع الماتع عشر ثمرات أسأل الله أن يجعلنا أهلاً لها .

الثمرة الأولى الرضا واليقين

وقد بدأت بهذه الثمرة الجليلة الكبيرة فهي من وجهة نظري أعظم الثمرات للإيمان بالقدر خيره وشره - الرضا واليقين - قال الله تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

من فهم هذا فعم عقيدة القدر ، وعَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ بِقَدْرِ ، فَمَا مِنْ وَرْقَةٍ تَسْقُطُ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَعِلْمِهِ ، وما يقع في الكون كله إلا بتقديره سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] .

وفي صحيح مسلم ^(١) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

« كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - رقم (٢٦٥٣) سبق ترجمته .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي ^(١) وغيرهما من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ :

« يَا غُلَامُ ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » .

من استقرت هذه المعاني في قلبه امتلأ قلبه بالرضا عن الله ، واليقين بالله تبارك وتعالى ، فصاحبُ الإيمان بالقدر يعيش عيشة هنيئة ، ويحيا حياة كريمة طيبة ؛ لأنه يعلم عِلْمَ اليقين أنه لن يصيبه إلا ما قدره له رب العالمين ولن يخطئه ما قدره له رب العالمين :

« وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ » .

ولذلك لما سأل الصحابة رسول الله ﷺ كما في صحيح

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ٥٩ رقم (٢٥١٦) ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد في المسند (٢٩٣/١) سبق تخريجه .

مسلم^(١) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - قَالَ :
أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفِيمَ الْعَمَلُ إِذْنُ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ
وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَوْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ ؟ فَقَالَ :

« لَا بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ » .

قال الرجل : فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قال النبي ﷺ :

« اَعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » .

اللهم يسرنا لليسرى برحمتك يا أرحم الراحمين .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود والترمذي^(٢) من حديث
عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ :
اَكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله
وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٨) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، والترمذي في كتاب تفسير
القرآن ، باب سورة « ن » رقم (٣٣١٩) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وأحمد في
مسنده (٣١٧/٥) سبق تخريجه .

وروى الإمام أحمد في مسنده ^(١) من حديث أبي الدرداء - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

« لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَاهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ » .

هذه معاني جميلة لكن لا تشعر بحلاوتها ولا بجلالها وجمالها إلا إن جربتها فعلاً ، لن تشعر بكمال السعادة وتمام الرضا إلا إذا علمت أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، فكل شيء بتقدير الله .

ومن روائع ما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه المانع « جامع العلوم والحكم » قال :

«فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، عِلِمَ حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد الرب سبحانه وتعالى، وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٤١، ٤٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٥) وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٩٠) .

ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عباده شيئاً ، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ، ولا يعطي ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك أن يفرد الله وحده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء ، وأن يُقدِّم طاعة الله على طاعة الخلق جميعاً وأن يتقي سخط الله ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً ، وأن يفرد الله وحده بالاستعانة به والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء ، خلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له في حال الشدة ونسيان الله في حال الرخاء

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] ^(١) .

(١) انظر : جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٣) .

ورحم الله من قال :

كن عن همومك معرضا ودع الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضأ
الله يفعل ما يريد فلا تكن متعرضا
وقال غيره:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله
وإذا بليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الخالق الله
والله مالك غير الله من أحد فحسبك الله في كل لك الله
فإن استقرت هذه العقيدة في القلب يشعُر الإنسان بالرضا واليقين ،
ووالله إن أصحاب هذه العقيدة هم الذين دخلوا جنة الدنيا قبل أن
يدخلوا جنة الآخرة ، فإن من دخل جنة الدنيا دخل جنة الآخرة !!!
وهؤلاء هم أهل السعادة والحياة الطيبة .

ومن أجمل ما قرأتُ في هذا ما أورده الحافظُ الحميديُّ وهو تلميذ

ابن حزم الظاهري - رحمهما الله تعالى - في كتابه « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » :

أن الوزير أبا عمرو أحمد بن سعيد بن حزم - وهو والد الإمام ابن حزم الفقيه الظاهري المعروف - كان جالساً يوماً في مجلس أميره المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ، وكان هذا الرجل يجعل يوماً للمظالم والشكاوي ، فدخلت عليه امرأة عجوز انحنى ظهرها ؛ لترفع إليه رقعة فيها مظلمة وهي تقول بعد ما دعت الله عز وجل للأمير وقالت كلمات معروفة في مثل هذا المقام :

أعز الله الأمير وأيد سلطانه إلى آخره .

قال : ما حاجتك يا أماه ؟

قالت : ابني في السجن منذ كذا وكذا وهو الذي يتولى أمري ويرعى شؤوني .

قال : من ولدك ؟

قالت : فلان ابن فلان .

فاستشاط الأمير غضباً وقال : يُصْلَبُ يُصْلَبُ يَصْلَبُ ، وظل يصرخ بهذه الكلمة ، سبحان ربي ! فإن الذي ذكّر بصلب هذا الشاب أمه .

تدبروا المقادير ، وظل الأمير يصرخ : يُصْلَبُ يُصْلَبُ ، ثم طلب

مرسومًا أميرًا ليكتب فيه ما أراد ، وكتب ودفع المرسوم إلى وزيره
والد الإمام ابن حزم ، فانطلق ليسلمه إلى قائد السجن ، فلما قرأ قائدُ
السجن مرسومَ الأمير نفذ ما فيه ، فأطلق صراح الشاب وأخرجه من
معتقله ومن سجنه !!!

فلما رآه الأمير خارج السجن صرخ واستشاط غضبًا على وزيره ،
وقال : ألم أقل يصلب ؟ ألم أقل يصلب ؟

فارتجف الوزير وقائد السجن ، فقال قائد السجن : أعز الله الأمير ،
هذا أمرك إلي يا مولاي ، ودفع إليه مرسومه الأميري الذي كتبه بيده ،
فقرأ الأمير فوجد أنه بدل أن يكتب : يُصَلَّبْ كتب : يُطَلَّقْ ، سبحان
الله !!!

قد يكون مفتاحك في يدك وأنت تبحث عنه في كل مكان ، بل قد
تجلس أمام الآلة الحاسبة لتحسب بعض المسائل فينغلق عليك عقلك
فتختل كل المسائل بين يديك فتعيد الحسابات من جديد وربما مرة بعد
مرة ، إن العقل قد انغلق للحظات ، فالأمر لا يحتاج إلى فذكرة عقلية
إطلاقًا فقرأ الأمير يُطَلَّق !!!

قال : وكان وقافًا قال : إذن يُطَلَّقْ ثم يطلق ثم يطلق.

فمن أراد الله له أن يطلق ما استطاعت الدنيا له أن يُشَنَّق !!!

لقد سألت أحد المستشارين عن أغرب قضية عرضت عليكم ، فقال :
والله يا شيخ إن أغرب قضية عُرضتُ علىّ لرجلٍ في قرية من القرى ،
وسُجنَ هذا الرجل على أنه قاتل ، وقُدِّمت الأدلة التي تبين أنه متهم ،
ومن خلال هذه الأدلة المقدمة حَكَمَت المحكمةُ عليه بالإعدام ،
وصُدِّق على الحكم من المفتي .

قال : وفي يوم نطق الحكم جلستُ على منصة القضاء ، وجلس
أخوأي عن يميني وعن شمالي ، وامتلأت المحكمة بالناس وصمتت
الأسنة ، بل وصمتت الأنفاس ، وتعلقت الأذهان بالقاضي ،
وأرهفت الأذان لسماع هذا الحكم .

يقول : وقرأت الديباجة قبل الحكم كاملة لأختم هذه الديباجة
بقول : وَقَدْ حَكَمَت المحكمةُ على المتهم بالإعدام يقول : وبعد قراءة
الديباجة وكلها مقدمة للإعدام ومع ذلك أقول :

وقد حكمت المحكمة ببراءة المتهم .

يقول : فارتعد جسدي ، وانتفضتُ ، وقمتُ مسرعاً من على المنصة
ودخلت إلى المكتب الداخلي وأنا لا أدري ماذا قلتُ !!!

قالوا له : يا فلان ، إذن لا بد أن نبحث هذه القضية من جديد .

يقسم لي بالله ما مضي أسبوعان إلا وقد وفقهم الله جل وعلا

للولوصول إلى القاتل الحقيقي الذي اعترف تفصيلاً بجريمته وبرأ الله
الرجل الأول قبل أن تبرئه ساحة المحكمة !!!

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - وهو يتحدث عن الرضا
واليقين:

« ومعنى هذا أن حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير
الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه ، فمن استطاع أن
يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرضا بالمقدور فليفعل ، فإن لم
يستطع الرضا ، فإن في الصبر على القضاء والمكروه خيرًا كثيرًا .

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب :

الأولى :- وسألتني بها - أن يرضى بذلك - أي بالقضاء خيره وشره -
وهذه درجة عالية رفيعة جدًا ، قال الله عز وجل : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] .

قال علقمة : هي المصيبة تصيبُ الرجل فيعلم أنها من عند الله
فيسلم ويرضى - اللهم ارزقنا التسليم والرضا .

وخرج الترمذي ^(١) من حديث أنس أن النبي ﷺ قال :

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء رقم (٢٣٩٦) ، وقال :
« حسن غريب » ، وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء رقم (٤٠٣١) ،
وصححه الشيخ ناصر - رحمه الله - في الصحيحة (١٤٦) .

« وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ » . اهـ . سبحان الله !!!

وها هو رسول الله ﷺ وهو أحب الخلق إلى الله ابتلى ابتلاءً تنوء بحمله الجبال الرواسي .

وَضَعَ التراب على رأسه !!

هل وضع التراب على رأسك ؟!

وَضَعَت النجاسة على ظهره وهو ساجد !!

هل وَضَعَت النجاسة على ظهرك وأنت ساجد ؟!

خُنِقَ حتى كادت أنفاسه أن تخرج !!

هل خُنِقَتْ أنفاسك وأنت تُبَلِّغ دعوة الله بالحكمة البالغة والموعظة

الحسنة ؟!

طرد من بيته وبلده !!

هل طردت من بيتك وبلدك ؟!

أُتِهمَ في عَرَضِهِ وشرفه وفي عائشة التي أحبها من كل قلبه !!!

إنه الابتلاء إنها الفتن ، قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ

يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢، ٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

[البقرة: ٢١٤]

أقول : ومع ذلك ابتلى الله نبيه وهو أحب الخلق إليه ، فإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، لا لأن الله عز وجل يريد بهذا الابتلاء أن يُعَرِّضَ أحبَّابه وأوليائه للضنك والشقاء ، كلا ، وإنما ليرفع بهذا الابتلاء درجاتهم ، وليمحص الله بهذا الابتلاء صفَّهم ، فلا يثبت على الطريق إلا الصفوة من الأولياء الذين يحملون دين الله ودعوة الله يريدون بها وجه الله ، وحتى يطرد من الصف التجار الذين يتاجرون بالدعوة ويتاجرون بالعقيدة ، فإن حَصَّلُوا المكاسب المادية الزائلة من مال ، وشهرة ، وجاه ، ومنصب ، وزعامة ، وصدارة ، وقيادة ، وريادة ، فهم على الطريق مع السائرين ، وإن مُنِعُوا من هذا أو من بعض هذا انصرفوا !!!

وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

أَصَابَهُ خَيْرٌ أطمأنَّ بِهِ ^ط وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿ [الحج: ١١] .

اللهم ارزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال برحمتك يا
كبير يا متعال .

قال ^(١) :

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال :

« ... إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ
سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ » ^(٢) .

فلتخرج من تحت سمائه ولتعبد ربًّا سواه إن اهتمت الله في قضائه،
فالله جل وعلا عدل ، لا يُتهم في قضائه أبدًا ، إن كان آحاد المؤمنين لا
يُتهم في قضائه إن قضى في هذا بخير أو على هذا بشر لا يتهم في عدله
ولا يتهم في إنصافه ، فكيف يتهم أحكم الحاكمين جل جلاله ؟

ومما يدعو المؤمن على الرضا بالقضاء إيمانه بقول النبي ﷺ :

« عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ

(١) أي الحافظ ابن رجب — رحمه الله تعالى .

(٢) سبق تخريجه .

سَرَّاءُ فَشَكَرَ ، كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ ، كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ «^(١) .

وفي رواية صحيح مسلم^(٢) أيضًا من حديث صهيب الرومي :
 « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

قال أبو الدرداء : إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضي به .
 أيها المتسخط ، أيها الحاقد الحاسد على غيرك كل هذا بقضاء الله وقدره ، فإن الله جل وعلا إذا قضى قضاءً أحب أن يرضي به !! .
 وقال ابن مسعود - رضي الله عنه : « إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » فالتسخط كثير الشكوى لا يرضى ولا يسلم ، والراضي بقضاء الله وقدره لا يتمنى غير ما هو عليه من شدة ورخاء .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١١٧، ١٨٤)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٤٢١٧، ٤٢١٨)، وابن حبان (٧٢٨) من حديث أنس بن مالك بلفظ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، مَا يَقْضِي » ، وصححه الشيخ ناصر - رحمه الله - في الصحيحة (١٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير رقم (٢٩٩٩) .

قال عمر بن عبد العزيز:

« أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر » لأنه إن كان القضاء خيرًا شكر ، وإن كان القضاء شرًا صبر ، وكلاهما خير ، فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله نعيم وسرور .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] .

قال بعض السلف : الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة .

وقال عبد الواحد بن زيد :

« الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين » .
والله الذي لا إله غيره لو أعطاك الله مَالَ قَارُونَ ولم تشعر بالرضا ،
ما كان لهذا المال قيمة ، وقد وقع ذاك بالفعل من قارون !!!
ولو أعطاك الله عز وجل نَزْرًا يسيرًا ، ورزقك مع هذا النزر اليسير
الرضا ، فأنت من أغنى الخلق في أرض الله ؛ اللهم ارزقنا الرضا .

قال الحافظ ابن رجب :

« وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المُبْتَلَى »

يعني : إن وقع في أهل الرضا البلاء فهم يعايشون اسمَ الحكيم
ويلاحظون حكمة المبتلي سبحانه ، ويعلمون يقيناً أن الله ما ابتلاهم
إلا لحكمة يعلمها وإن جهلوا هم !!!

قال : « وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المبتلي وخيرته لعبده في
البلاء وأنه غير مُتَّهم في قضائه ، وتارة يلاحظون ثواب الرضا
بالقضاء فينسيهم هذا الثواب ألم المقضي به » .

فالراضي يفكر في الثواب ، فإذا مات له ولد فيصبر ويرضى وهو
يفكر في أجر من صبر على هذا البلاء ، فتارة يلاحظ ثواب الرضا
بالقضاء ، فينسيه هذا الثواب ألم المقضي به .

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله تعالى :

« وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله فيستغرقون في
مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم ، وهذا لا يصل إليه إلا خواصُّ
أهل المعرفة والمحبة ، حتى ربما تلذذوا بها أصابهم لملاحظتهم صدورهم
عنه سبحانه » ^(١) سبحانه من أذاق هؤلاء حلاوة أنسه ولذة قربهِ !!

لا يفكر في الثواب ولا في القضاء ، لكنه يفكر في ربه ، يعيش مع
ربه سبحانه ، مع جلال الله وعظمته وكماله ، فيشعر باللذة في البلاء

(١) جامع العلوم والحكم (٢٥٠، ٢٥١) بتصرف ط الحديث .

وإن كان هذا البلاء عذاباً يشعر فيه بلذة ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ صدر عن الله سبحانه وتعالى ، أو لم يقل بلالٌ مستعذباً للعذاب : أَحَدُ أَحَدُ استعذب العذابَ في سبيل الله هذه درجة يقول الحافظ : يصل إليها خواصُّ أهل المعرفة والمحبة .

قال بعضهم : أوجدتهم في عذابه عذوبة .

وقال أحدهم : أنت عندي كروحي بل أنت منها أحب .

وقال ﷺ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ^(١) .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال كما في الصحيحين ^(٢) :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » .

نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بالرضا واليقين إنه وليُّ ذلك ومولاه .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان رقم (١٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين رقم (٤٤) من حديث أنس بن مالك .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان رقم (١٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم (٤٣) من حديث أنس بن مالك .

الثمرة الثانية

الاستغناء بالخالق عن الخلق

ما أحلاها من ثمرة ، وما أجملها من فائدة ، وما أروعها للمسلم إن استقرت في قلبه عقيدة الإيمان بالقدر أن يستغني بالخالق عن الخلق . علمت كما أَصَلْتُ لك أن كل شيء بيد الله ، قلوبُ العباد بيد الله ، لا تحوّل لك بالحب والبغض إلا بتقديره سبحانه !!!

والله لو استقرت هذه في قلبك لن تنافق مخلوقاً ، ولن تخشى أحداً على وجه الأرض ، هذا الذي ترجوه وتخافه قلبه بيد من عصيت وهو الله سبحانه وتعالى ، فالذي يُصَرِّفُ لك القلوبَ بالحب والبغض ، والعطاء والمنع هو الله ، إن صرفَ الله إليك قلباً بحب فهذا تقديره ، وإن صرفَ الله إليك قلباً ببغض فهذا تقديره ، وإن حولَ الله إليك قلباً بعباء فهذا تقديره ، وإن حولَ الله إليك قلباً بمنع فهذا تقديره ، إن كان ذلك كذلك ، فلم تعلق قلبك بالبشر وقلوبُ كلِّ البشر بيد رب البشر وخالقِ الخلق سبحانه وتعالى الذي يقدرُ وحدهُ على أن يُصَرِّفَ لك القلوبَ بالبغضِ والحبِ والعطاء والمنع ؟ !!!

فلو اجتمع أهل الأرض بالثناء عليك لن يقربوك من الله إن كنت

بعيداً عن الله ، ولو اجتمع أهل الأرض بذكك والبغض لك ما أبعدوك عن الله إن كنت قريباً من الله فلم تعلق قلبك بالخلق !!؟ اللهم ارزقنا الإخلاص ، واغننا بفضلك عمّن سواك .

فمن عرف القضاء والقدر استغنى بالخالق عن الخلق .

تدبر ماذا قال النبي ﷺ كما في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وأبو نعيم ، وغيرهم وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع»^(١) من حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال :

« مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ، وَمَنْ أَسَخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللَّهِ ، كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَةَ النَّاسِ » .

من أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ، وكله الله إلى الناس ، فاتهموه وسخطوا عليه وأبغضوه ، أما السعيد ، فهو الذي لا يعنيه قط إلا رضا الله ، ولا يعنيه البشر إطلاقاً ، ولا يلفتُ إلى الخلق ؛ لأنه على

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ٦٤ رقم (٢٤١٤) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١١٨/٨) ، وابن حبان في صحيحه (١٥٤١) موارد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٠) ، وفي الصحيحة (٢٣١١) . والحديث له شاهد عن ابن عباس ، أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٨/١١) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٤/١٠) ، وقال : « رجاله رجال الصحيح غير يحيى بن سليمان الحفري وقد وثقه الذهبي .. » .

يقين أن رزقه بيد الخالق ، لا بيد الخلق وأن قلوب الخلق لا تقبل إليه بالحبّ والبغض إلا بتقدير الخالق .

فهذا لا يعلق قلبه بال مخلوقين ، لا بشائهم ، ولا ببغضهم ، ولا بدمهم ، ولا بحمدهم ، بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله ، فلا يعنيه إلا أن يقول : قال الله : قال رسوله بما يرضي الله سبحانه ، لا بما يُحصّل به رضا الناس ، وشاء الله أن يرينا في دنيا الناس هذه الحقائق ، فمن يتكلم لإرضاء السلطان ، أو للثبات على كرسيه الزائل ، أو للحفاظ على منصبه الفاني ، انظروا إلى العاقبة ، وكلنا يعرف هذا الصنف !!!

ومن قال لله لا يخشى في الله لومة لائم ، بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، أسعده الله في الدنيا والآخرة ، فليس معنى أنه لا يخشى في الله لومة لائم أن يسيء ويتهم الناس بالباطل ، ويكفر فلاناً ، ويفسق فلاناً !!

كلا كلا فبعض الشباب يظن أن من أساء إلى الخلق واتهم الخلق هو الذي يصدع بالحق !

كلا ، فرسول الله صدع بالحق ، بحكمة ، وبرحمة ، وتواضع ، وبأدب ، فهذا قلبه علق بالله تبارك وتعالى يبلغ دين الله بحق ، وحكمة ، وتواضع ، ورحمة ، وأدب ، لا يعنيه أن يسخط الناس ما دام

يُرِضِي رَبَّ النَّاسِ.

لأن النبي ﷺ يقول : « وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ » .

والنبي ﷺ يقول : « مَنْ سَمَعَ سَمَعَ اللَّهِ بِهِ وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهَ بِهِ » ^(١) .

يعني : إن أردت بعملك وقولك السُّمعة ، أظهر الله طوبتك إلى الناس إن لم تتب إليه !!

قد يُخفي الإنسان عمله ، ويُغلق على نفسه الأبواب ، ويرخي الستور ، يبارز ربه بالمعصية ، ويصر على ذلك من غير توبة ، فيجدُ معصيته هذه التي لم يطلع عليها إلا ربه مكشوفة للخلق .

« مَنْ سَمَعَ سَمَعَ اللَّهَ بِهِ وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ » ^(٢) .

نسأل الله أن يرزقنا الخشية منه في السر والعلانية إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الرياء والسمعة رقم (٦٤٩٩) ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٧) من حديث جندب العلقمي . وأخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٦) من حديث عبد الله ابن عباس سبق تخريجه .

(٢) هذا لفظ ابن عباس عن مسلم كما سبق .

فمن ثمرات الإيمان بالقدر : الاستغناء بالخالق عن الخلق ؛ لأن كل شيء يصيبك من خير وشر إنما هو من تقدير الله ، والمخلوق ما هو إلا واسطة لتوصيل قدر الله فيك خيرًا كان أو شرًا ، يعني : إذا أصابني أحد الإخوة بسوء ، فهذا تقدير الله وهو واسطة لوصول هذا المقدور .

وإن جاءني أحد الإخوة وقدم إليّ خيرًا ، فهذا تقدير الله وما هو إلا واسطة لتوصيل هذا المقدور ، فإذا علمتم ذلك يقينًا فلا ينبغي أن نستغني بالمخلوق عن الخالق ، وإنما يجب أن نستغني بالخالق عن الخلق أجمعين !!!

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، وأن يغنيننا به عن خلقه وبفضله عمن سواه إنه ولي ذلك ومولاه .

الثمرة الثالثة

صدق الاستعانة بالله عز وجل

فمن آمن بالقدر وعَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، تَخَلَّصَ من حوله وطوله وَقُوَّتِهِ وعقله ، ولجأ إلى حول وطول الله ومدد الله وقوته ، فصدق في الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ، فكثير منا يكذب وهو يطلب الاستعانة بالله في قوله كُلَّ يَوْمٍ :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] .

فالصدق في طلب الاستعانة من الله عز وجل ثمرة ، لن تتذوق طعمها ولا حلاوتها إلا إذا حققت الإيمان بالقدر ، وعلمت يقيناً أن كل شيء بتقدير الله وأن كل شيء في الكون بأمر الله ، فأنت تتخلص من حولك وطولك ومددك وقوتك وعقلك وغناك وأسباب الدنيا ، وتصدق في طلب العون من الله تبارك وتعالى وحده .

قال ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما :

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ » ^(١) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ٥٩ رقم (٢٥١٦) ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد في المسند (٢٩٣ / ١) سبق تخريجه .

ولا يحقق صدق الاستعانة إلا من حقق الإيمان بالقدر ؛ لأن صدق الاستعانة ثمرة من ثمرات الإيمان بالقدر ، فما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه كله مقدور عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب الله عز وجل له من ذلك في الكتاب السابق .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

[الحديد: ٢٢]

فمن علم ذلك يقيناً - وهذا هو الإيمان بالقدر - سأل الله عز وجل العون في أن يصبر على ما قدره وأن يوفقه في شكر ما يسره له .

قال الحافظ ابن رجب في كتابه الماتع « جامع العلوم والحكم »^(١) :

« وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق ، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال في جلب مصالحه ودفع مضاره » يعني : أنت لا تقدر على أن تجلب لنفسك مصلحة إلا بتقدير الحق سبحانه ، ولا تملك أن تدفع عن نفسك مضرة إلا بتقدير الحق سبحانه

(١) جامع العلوم والحكم (٢٤٨) ط الحديث .

« وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصَيِّبِكَ » .

قال ابن رجب :

« العبد عاجز عن جلب ما ينفعه وعن دفع ما يضره ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عزَّ وجلَّ » .

فمن أعانته الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول ، وهذا هو تحقيق معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن المعنى : لا تحوّل للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله ، وهذه كلمة عظيمة ، وهي كنز من كنوز الجنة ، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات ، والصبر على المقدورات كلها ، في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة ، ولا يقدر على الإعانة على كل ذلك إلا الله عز وجل فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانته سبحانه وتعالى .

وفي الحديث وفيه أنه ﷺ قال :

« اخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ » ^(١).

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة .

ووصية النبي ﷺ لمعاذ - رضي الله عنه - قال :

« يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ » . فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ : بِأَيِّ آتٍ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا أُحِبُّكَ قَالَ : « لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » ^(١) .

قال ابن القيم في كتابه القيم : « طريق المهجرتين وباب السعادتين » ^(٢)

قال كلامًا يحتاج المسلم إلى أن يقرأه مرات بعد مرات يقول :

« اعلم أن كلَّ حيٍّ - سوى الله - فهو فقير إلى جلبٍ ما ينفعه ودفع ما يضره ، والمنفعة للحَيِّ من جنس النعيم ، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب ، فلا بد من أمرين :

أحدهما : هو المقصود المطلوب المحبوب الذي يتنفع به ويتلذذ به .
والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه » - فالأول أن أحقق ما أريد ، الثاني : ألا يكون هناك مانع يحول بيني وبين ما أريد .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الاستغفار رقم (١٥٢٢) ، والنسائي في كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء رقم (١٣٠٢) ، وابن حبان في المسند (٢٤٤ / ٥ ، ٢٤٥) ، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٧٥١) ، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٣٤٥) موارد ، والحاكم في المستدرک (١ / ٢٧٣) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وصححه الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع برقم (٧٩٦٩) .

(٢) انظر : طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص ٥٣) وما بعدها بتصرف ، ط دار الحديث .

قال ابن القيم : فيها هنا أربعة أشياء :

الأول : أمر محبوب مطلوب الوجود .

والثاني : أمر مكروه مطلوب العدم .

فهذا الذي قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤] .

فأي سعادة تجني وقد أعرض الله عنك ؟ وأيِّ بؤس أنت فيه وقد أقبل الله عليك !!؟

والثالث : الوسيلة إلى حصول المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأربعة ضرورية للعبد » .

أسأل الله أن يرزقنا صدق الاستعانة به .

الثمرة الرابعة

صدق اعتماد القلب على الله مع أخذ بالأسباب

المؤمن بالقدر لا يُضَيِّعُ الأخذ بالأسباب ، لكنَّ الفارق بين المؤمن بالقدر وغيره ، أن المؤمن بالقدر يأخذ بالأسباب ، ويعلق قلبه بمسبب الأسباب لا بالأسباب ، هذا هو المراد بصدق اعتماد القلب على الله .

قال شيخ الإسلام ^(١) - رحمه الله :

« ما من شيء في الدنيا والآخرة إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات في الدنيا والآخرة » .

حتى دخولك الجنة بسبب ، ودخولك النار بسبب ، وتفوقك بسبب ، وسقوطك في أي عمل بسبب ، وهذه سننُ الله في الكون ، إن الله سننًا ربانية في الكون لا تبدل ، ولا تتغير ولا تحابي تلك السنن أحدًا من الخلق بحال مهما ادَّعى لنفسه من مُقَوِّمَاتِ المحاباة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٠) .

فالمشرك أخذ بالأسباب فأعطته نتائجها ، والمسلم كذلك عليه أن يأخذ بالأسباب ، لكنَّ الفارقَ بينه وبين المشرك ؛ أنَّ المسلمَ يأخذ بالسبب ويعلق قلبه بمسبب السبب تبارك وتعالى ، وهذه هي حقيقة التوكل .

فالتوكل على الله من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

انظر إلى النبي ﷺ يوم الهجرة ، هل ترك سبيًا لم يأخذ به ؟ لا ؛ بل أخذ بكل الأسباب ، أسباب الحيلة والحذر ، فالذي يتجه إلى المدينة يجب عليه أن يتجه شمالاً لو كان في مكة ، لكن النبي ﷺ اتجه جنوباً ؛ لأن المطاردين سيتجهون ناحية الشمال ؛ ليعثوا بين الصخور وبين حَبَّات الرمال عن النبي ﷺ وصاحبه ، ولن تهدأ حركة البحث في الأيام الأولى ، فيمكث النبي ﷺ في الغار ثلاثة أيام !! ويبحث عن رجل خريّت عالم بالطرق حتى ولو كان مشركاً ، إنه عبد الله بن أريقط ، وأبو بكر الصديق يُعَدُّ الراحلتين ، وعبد الله بن أبي بكر - رضوان الله عليهما - ينقل إليهما أخبار قريش ، وأسماء تحضر الطعام ، وعامر بن فهيرة يأتي بالأغنام لتمحوا آثار الأغنام آثار الأقدام ، وهكذا يدع النبي ﷺ سبيًا إلا أخذ به ، وهذه هي حقيقة التوكل ، وفجأة انقطعت كل هذه الأسباب !

يا الله بين غَمَصَةِ عَيْنٍ وانتباهتها تَعَطَّلَتْ كل هذه الأسباب ،

وحاصر المشركون الغار من كل ناحية ، والصديق يقول : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا !! فتعطلت كل الأسباب ، فكانت مباشرة عظيمة ومعية مسبب الأسباب ، فقال المصطفى الذي يؤمن بمسبب السبب لا بالسبب .

كما في الصحيحين : « يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ ثَالِثَهُمَا » ^(١) .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .

هذا هو الإيمان بمسبب السبب ، فلقد انقطعت كل الأسباب التي أخذ بها النبي ﷺ بمجرد وصول المشركين إلى الغار . لكنه لم يأخذ بالأسباب ؛ لأنها تنجيه !! لا ؛ وإنما أخذ بالأسباب ؛ لأنها سنة ربانية لله في الكون ، لكن قلبه معلق بمسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، ومن ثم لما انقطعت الأسباب تدخلت إليه - وعلى الفور - عناية مسبب الأسباب وحفظ مسبب الأسباب ، والمعية هنا هي المعية الثانية من أنواع المعية فالمعية نوعان :

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم (٣٦٥٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه رقم (٢٣٨١) .

معية عامة : وهي معية العلم والإحاطة والشمول .

ومعية خاصة : وهي معية الحفظ والنصر والتأييد والمدد : « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » بحفظه وبرعايته وعنايته ، ومن كان الله معه فمن يخاف .

وأذكر هاجر - عليها السلام - في صحراء مترامية لا بيت فيها ولا شجرة ، ولا إنس ، ولا سبب من أسباب الحياة إطلاقاً ، اللهم إلا ما وضعه إبراهيم عندها ورضيعها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، والحديث في صحيح البخاري من حديث ابن عباس ^(١) وتقول هاجر :

« أَتَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ » .

لا ترى فيه شيئاً على الإطلاق من أسباب الحياة ، لا ترى إلا جبل الفسفا والمروة ، وهما أقرب جبلين سودت حجارتهما حرارة الشمس !!

لا ترى إلا رمالاً انعكست عليها أشعة الشمس ، فكادت الأشعة المنعكسة فقط أن تسرق الأبصار !!

فتقول له : « أَتَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب يزفون النسلان في المشي رقم (٣٣٦٤) .

الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا .

ما أجملها من كلمات .. وما أروعها من عبارة .. وما أعظمه من توكل .. وما أحلاها من ثقة « إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا » وفي رواية صحيحة^(١) قالت هاجر: « رَضِيتُ بِاللَّهِ » .

فكان ما كان ، نزل جبريل وفَجَّرَ عين زمزم ونادى على هاجر وقال لها :

« إِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ » .

وفي رواية أخرى عند الطبري^(٢) بسند حسنه الحافظ ابن حجر من حديث على - رضي الله عنه : أن جبريل قال لهاجر وهي على المروة في الشوط الأخير : « مَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ » - نسبت نفسها إلى معرفة ؛ لأن إبراهيم يعرفه أهل السماء - فقال جبريل : وهذا هو الشاهد من حديثي قال :

« وَإِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا قَالَتْ : إِلَى اللَّهِ . فَقَالَ جِبْرِيلُ : وَكَلَكُمَا إِلَى كَافٍ » .

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٥) .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٥٩٥ / ١) عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٢] ، وفتح الباري (٤٠٢ / ٦) ط المعرفة .

قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] .

وهذه أم موسى يقول الله تعالى لها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧] .

أقف عند هذا الأمر الرباني ﴿ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ يعني : صار سبب الإهلاك سبب أمن بأمر مسبب السبب جلّ وعلا ؛ فالبحر إن ألقيت فيه ابنك الرضيع غرق وهلك ، ولكن الله يأمر أم موسى أن تلقيه في البحر لينجيه مسبب الأسباب ، يجعل سبب الإهلاك سبب نجاة حتى لا يتعلق قلبك بالأسباب ، هل تقذف بابنك في البحر؟! سيغرق ويموت ، أما هذه فيقول لها الله : اقذفيه في اليم ليعلم أصحاب القلوب القلقة أن الله إن قدر شيئاً فعله ، وإن أراد شيئاً فإنها يقول له : كن فيكون.

وتلقي أم موسى رضيعها ويتهادى التابوت في الماء ثم يتوقف بأمر الله أمام قصر فرعون !!

كم ذبح فرعون من أطفال ليصل إلى هذا الغلام المبارك؟! ولكن الملك وعد أمه أن يرد موسى إليها وأن ترضعه هي فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

يحرم الله المراضع على موسى ، قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص: ١٢] .

حتى جيء بأم موسى إلى قصر فرعون ونجى الله موسى من
فرعون بستر رقيق ، ألا وهو ستر المحبة فقذف الله حب موسى في
قلب امرأة فرعون ، حين نظرت إليه قالت : ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا
تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص: ٩] .

ونجى الله موسى ، بل ويأمر فرعون أم موسى أن ترضعه وتشبعه
أمام عينيه وبين يديه ، فأم موسى بالأمس القريب كانت تخشى على
موسى من فرعون وملئه ، وهي الآن في قصر فرعون ترضع موسى
بأمره !!

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر :

صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب ، فالأسباب
وحدها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا ترزق ، ولا تمنع إلا بأمر مسبب
الأسباب جل جلاله .



الثمرة الخامسة

دوام الذل والانكسار والافتقار إلى الله عز وجل

كيف يُحَصِّل المؤمن بالقدر هذه الثمرة ؟!

المؤمن بالقدر يشاهد القدر في فعل الحسنات وعمل الصالحات،
يعني : إن أعانه الله عز وجل على طاعة ما ، لا يغتر بها ؛ لأن الذي
قدر له وأعانه على هذه الطاعة هو الله جل وعلا ، ولا يرى لنفسه
فضلاً ، ولا يمتن على الله بعمل !!

قال تعالى : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ^ط قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ^ط
بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[الحجرات: ١٧]

والنبي ﷺ يقول كما في الصحيحين ^(١):

« كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ
يُمَجِّسَانِهِ . »

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٥) ، وانظر
رقم (١٣٥٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد
على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة .

ونحن نشأنا في بيوت توحيد الله فوحدنا الله : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] .

ولو وضعنا أنوفنا في الطين لنشكر رب العالمين على أن وفقنا للإيمان واتباع سيد المرسلين ، والله مَا وَفَّيْنَا الله حقه حتى نلقاه ، من أجل ذلك قال النبي ﷺ :

« لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » ^(١) .

فما هو العمل الذي يكافئ هذه النعمة ؟!!

ولو وُفِّقَت للطاعة وَأُعِنْتَ على الطاعة وألهمك الله شكرها فكيف تشكر الله على الثالثة وهي نعمة الشكر !!

ورحم الله من قال :

لك الحمد يا ربي على كل نعمة ومن أفضل النعماء قولي : لك الحمد

فمن عَرَفَ الله أَحَبَّهُ ، ومن عَرَفَ رسولَ الله أَحَبَّهُ ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

ومن اللطائف الجميلة التي وقفت عليها في بعض كتب أهل العلم :

لما أمر الله إبراهيم أن يذبح إسماعيل ، وقام إبراهيم لينفذ أمر مولاه ،

(١) سيأتي تخريجه .

وأصبح القلب بكليته مستسلماً محباً راضياً بقدر الله وأمره ، وكان
الفداء !!!

أرأيتم قلباً أبوياً	يتقبل أمراً يأباه
أرأيتم ابناً يتلقى	أمراً بالذبح ويرضاه
ويحيب الابن بلا فزع	أفعل ما تؤمر أبتاه
لن أعصي لإلهي أمراً	من يعصي يوماً مولاه
واستل الوالد سكيناً	واستسلم ابن لرداه
ألقاه برفق لجبين	كي لا تتلقى عيناه
وتهز الكون ضراعات	ودعاء يقبله الله
تتضرع للرب الأعلى	أرض وسماء ومياه
ويحيب الحق ورحمته	سبقت في فضل عطياه
صدقت الرؤيا لا تحزن	يا إبراهيم فديناه

فالمطلوب أن يسجد قلبك لله !!

اللهم املاً قلوبنا بحبك ، وامنن علينا بفضلك ، وجودك ،
وكرمك ، وعطائك ، وفضلك ، ورضاك ، والشوق لك ، والأنس

بك ، اللهم إنا نسألك أن تزيقنا لذة الذكر لك ، وأنس اللقاء بك يا أرحم الراحمين .

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر : أن المؤمنَ بالقدر دائمُ الذل والافتقار إلى الله تبارك وتعالى ؛ لأنه يشاهد فضل الله في كل طاعة فتدفعه هذه المشاهدةُ للقدر إلى مداومة التضرع إلى الله ، وطلب العفو منه ، وعدم الالتفات إلى عمله ، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الدنيا والآخرة إنما هو بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله .

روى البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال :

« لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » .

قالوا : حتى أنت يا رسول الله ؟

قال : « حَتَّى أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل رقم (٦٤٦٧) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٨) من حديث عائشة .

وأخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعزنا بالذل إليه ، وأن يغنيننا بالافتقار
 بين يديه ، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا ، إنه ولي ذلك والقادر
 عليه .



= وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله
 تعالى رقم (٢٨١٧) من حديث جابر بن عبد الله .

الثمرّة السادسة

الصبر على الشدائد والمصائب

لا شك أن المؤمن بالقدر يعلم يقيناً أنه ما من شدة ومصيبة تقع في الكون إلا بإذن الله وأمره وتقديره ، قال تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

فالمؤمن الذي يشاهد القدر ينظر إلى المصيبة أو إلى الشدة أو إلى الألم أو إلى الضرر أو إلى الأذى ، سواء كان هذا الضرر أو الأذى في نفسه أو أهله وماله أو في أمته ، ينظر إليه على أنه تقدير الله سبحانه ، وعلى أن الدنيا كلها دار ابتلاء ، وبوتقة اختبار ، ولا يمكن أبداً أن ينجو إنسان يعيش في هذه الدنيا من المصائب والبلايا فالدنيا دار ابتلاء ، دار اختبار ، ومن استخبر النقل الصحيح والعقل السليم لعلم أن الدنيا هي دار المصائب والشور ، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر !!

فلا توجد لذة في الدنيا خالصة أبداً ، وإلا فما الفارق بينها وبين الجنة إن كانت لذات الدنيا خالصة من الشوائب والكدر ، فلا فرق

بين لذة الدنيا ولذة النعيم في الآخرة ، لكن شاء الله عز وجل أن يكون كل نعيم في الدنيا مشوبًا بالكدر ، مشوبًا بالنقص ، ليكون نعيم الآخرة هو النعيم الكامل .

كما قال ﷺ في بشارة جبريل - عليه السلام - لخديجة حينما جاءت ، والحديث في الصحيحين ^(١) حينما جاءت تحمل إناءً أو إدامًا فقال جبريل للرسول ﷺ :

« هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَأَقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمَنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ - أي : من لؤلؤة مجوفة - لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ » .

فلا صخب في الجنة ولا نصب - يعني تعب - فالدنيا دار المصائب ودار الابتلاء ، ودار الشرور ، فما تظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب يعني : ما تنظر إليه من بعد على أنه ماء إن أقبلت إليه وجدته سرابًا !!

وعمارة الدنيا وإن حسنت صورتها فمآلها إلى الخراب ، والعجب

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها رقم (٣٨٢٠) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - رقم (٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها رقم (٣٨١٩) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها - رقم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى .

كل العجب ممن يضع يده في سلة الأفاعي ويعجب إن لدغ !!
وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضرّ النفع .

وأعجب من كل ذلك الذي يريد أن يستخرج الماء العذب الزلال
من النار المتأججة هذا محال !!

فالدنيا أيها الأخوة دار ابتلاء كما قال القائل الحكيم :

على ذامضى الناس اجتماع وفرقة وميت ومولود وبشر وأحزان

هذه طبيعة الدنيا المرء رهن مصائب ما تنقض حتى يوسد جسمه في رسمه

فمؤجل يلقي الردى في غيره ومعجل يلقي الردى في نفسه

ومن أعظم الأدوية التي تذهب ألم البلاء وألم المصائب في الدنيا :

أن يؤمن الإنسان الذي وقعت به المصيبة بالقدر ، فيعلم يقيناً أن
هذا بتقدير الله تبارك وتعالى ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما
أخطأه لم يكن ليصيبه ، ولو اجتمعت الدنيا كلها على أن تمنع عنه هذا
الأذى أو البلاء ما استطاعت ما دام رب الأرض والسماء قد قدر عليه
هذا كما قال النبي ﷺ لابن عباس :

« وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا
بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ

يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ^(١) .

إذا المؤمن في حال المصيبة يستحضر في ذهنه وفي قلبه ما علمه من معاني القدر ؛ أن هذه المصيبة قد وقعت بأمر الله وقدره وتقديره ، فحينئذ يرضى ويسلم ، هذا هو المؤمن .

لكن غير المؤمن يفرع ويجزع ، ويقول : لو ولو ويكثر من اللولوة والتسويق والتعجب والتمني .

فأول مرحلة من مراحل التعامل مع المصائب للمؤمن بالقدر : أن يرضى ويسلم ، ثم يسلى نفسه بالصبر الجميل ، فالصبر على المصيبة أجره عظيم ، قال الله عز وجل :

﴿ وَكَثِيرٍ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] .

انظر إلى الفضل : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ^ص وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] .

هذا فضل الصبر على المصيبة والبلاء ، فصاحب الإيمان بالقدر

(١) سبق تحريجه .

يرضى ويسلم بالمصائب والشدائد والبلايا ، ثم يسلى نفسه ويتسلح ويتذرع بالصبر الجميل .

وصاحب الإيمان بالقدر يجاهد في دفع المصيبة إن كانت من المصائب التي يقدر على دفعها ، كمرض مثلاً ، فهو يبذل الأسباب ويبحث عن الدواء ، أو كهدم يزيل الهدم ويعيد البناء إلى آخر ذلك .

قال عمر - رضي الله عنه : « نَفَرُ من قدر الله إلى قدر الله » ^(١) .

نَفَرُ من قدر الله في البلاء إلى قدر الله في العافية .

ثم إذا كانت المصيبة مما لا يستطيع المؤمن أن يدفعها ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر كالموت مثلاً ، في هذه الحالة فهو كما ذكرت يرضى ويسلم ويستسلم ويؤمن بقدر الله تبارك وتعالى ويردد ما عَلَّمَهُ له النبي ﷺ .

وكما في صحيح مسلم : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون برقم (٥٧٢٩) ، وانظر طرفاه هناك ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها رقم (٢٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة رقم (٩١٨) ، وأحمد في المسند (٣٠٩/٦) من حديث أم سلمة .

إن قال ذلك بصدق ، سيخلفه الله عزَّ وجلَّ خيرًا منها ، كما أخلف
اللهُ أُمَّ سَلَمَةَ برسول الله ﷺ .

إذن الإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد
والمصائب والبلايا ، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

الثمرة السابعة

دوام الخوف والحذر

وأرجو أن تقفوا ملياً مع هذه الثمرة .

فالمؤمنُ بالقدر دائم الخوف والحذر ؛ لأنه لا يعلم ما قَدَّر الله عز وجل له ، لا يعلم الخاتمة ، ولا يعلم المصير ، ومن ثم فهو دائم الحذر من الخاتمة دائم الحذر من مكر الله ، وهذا الخوف لا يجعله يسوف ويؤجل العمل ، بل يدفعه دفعاً إلى العمل ، وإلى الطاعة حتى يلقي الله عزَّ وجلَّ وهو على الطاعة .

قال الله عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

وقال الله عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ تَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥] .

إذن المؤمن بالقدر دائم الخوف والحذر من مكر الله سبحانه وتعالى ، فكم من سعيد بجاهه وماله انقلب عليه حاله قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

اللهم ثبتنا على الحق حتى نلقاك .

قال ابن القيم - رحمه الله ^(١) :

«فكم من سعيد بجاهه وماله انقلب عليه حاله ورجع من حسن الجاه والنعيم إلى سوء المآل فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين اليمين على الشمال» .

يقول - رحمه الله :

فبينما بَدُرُ أحواله مستنيرًا في ليالي التمام ، إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام ، فبُدِّلَ بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضًا ، وبالقرب إبعادًا » .

لا حول ولا قوة إلا بالله - يعني : حاله على أكمل حال من نعيم وصحة وجاه إلى آخره ؛ إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام ، انتقل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن اليسر إلى العسر ، ومن الإقبال إلى الإعراض ، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء ، ومن الكدر بعد الصفاء ، ومن الظلام بعد الضياء .

سبحان من بيده القلوب يقلبها كيف شاء ، وسبحان من بيده الأمور يدبرها كيف يشاء !!

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٥، ٥١٦) ط دار الكتاب العربي بتصرف .

وفي صحيح مسلم ^(١) من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » .

ثم قال ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ » .

وفي سنن الترمذي ^(٢) بسند حسن من حديث أنس أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه يقول :

« يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » .

وفي رواية أم سلمة: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ:

« نَعَمْ ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » .

وما سمي القلب قلباً إلا لكثرة تقلبه .

نسأل الله أن يثبت قلوبنا على الحق حتى نلقاه ، فقد يصبح القلب

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء رقم (٢٦٥٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن رقم (٢١٤٠) ،

وأحمد في المسند (٣/ ١١٢) وصححه الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع (٧٩٨٧)

وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ٩٠ رقم (٣٥٢٢) ، وأحمد في المسند (٦/ ٣١٥)

من حديث أم سلمة .

على حال ويمسي على حال ، فالفتن تحوّل القلوب وتعصف بالقلوب
كما قال حبيب القلوب محمد ﷺ .

والحديث في صحيح مسلم ^(١) من حديث أبي هريرة قال ﷺ :
« سَتَكُونُ فِتْنٌ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي
كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ
الدُّنْيَا » .

والمؤمن بالقدر يخاف الخاتمة ولا يعرف بأي شيء سيختتم له ، وهذا
الخوف هو الذي مزق قلوب الصادقين والصديقين الذي يعلمون أن
العبرة بالخواتيم وأن الخواتيم ميراث السوابق .

ففي الصحيحين ^(٢) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - وفيه
أنه ﷺ قال :

« فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا
يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ النَّارِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن رقم (١١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب في القدر رقم (٦٥٩٤) ، ومسلم في كتاب القدر ،
باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله ، وشقاوته وسعادته رقم
(٢٦٤٣) ، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٨) .

فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » .

وفي لفظ سهل بن سعد الساعدي في الصحيحين ^(١) ؛ لأنه يزيل الإشكال قال :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ » .

عبارة نبوية دقيقة تزيل كل لبس وإشكال ، « فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ » ، لكن رب الناس يعلم منه غير ما يظهر وما يبدي ، فهو رجل مرءٍ والرياء مردود .

قال الله في الحديث القدسي ^(٢) :

« أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ » . حتى لو كان العمل في أعين الناس عظيمًا .
وفي لفظ ابن ماجه بسند صحيح : « فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب العمل بالخوائيم رقم (٦٦٠٧) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله ، وشقاوته وسعادته رقم (١١٢) ، واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة رقم (٤٢٠٢) ، وفي الزوائد : « إسناده صحيح رجاله ثقات » سبق تخريجه .

« فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ » أي من هذا العمل وهو للذي أشرك .

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال وأن
يجنبنا الرياء والنفاق إنه على كل شيء قدير .

ولذلك لما نام سفيان الثوري - وهو إمام الزهد والعلم والحديث -
على فراش الموت بكى بكاءً شديداً ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ،
أتخشى ذنوبك ؟!

فقال سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - وقد رفع شيئاً من الأرض -
يعني : عوداً صغيراً : والله لذنوبي أهون عندي من هذا .

ولكنني أخاف أن أسلبَ الإيمان قبل الموت ، فلما دخل عليه حماد بن
سلمة - رحمه الله - قال له حماد : أبشر يا أبا عبد الله ، إنك مُقْبِلٌ على
من كنت ترجوه ، فبكى سفيان وقال لحماد : أسألك الله يا حماد أتظن
أن مثلي ينجو من النار ، أتظن أن مثلي ينجو من النار ؟!!

هؤلاء هم المؤمنون ، وكيف لا ؟! وقد خاف سيد المؤمنين وإمام
النبين وحبيب رب العالمين قال :

« أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشِيَّةً » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب ما يكره من التعمق والتنازع
والغلو في الدين والبدع رقم (٧٣٠١) ، وأحمد في المسند (٦/ ٦١ ، ١٢٢) من حديث عائشة
رضي الله عنها .

بل والله لقد خافت الملائكة التي لا تفتر عن ذكره وتسبيحه ، بل
لقد خاف الرعد منه سبحانه أولم تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَتَسْبِحُ
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ۖ ﴾ [الرعد: ١٣] .

اللهم املاً قلوبنا بالخوف منك وبالخشية لك وحدك .

وفي الحديث الذي رواه أحمد ^(١) بسند حسن من حديث أبي ذر -
رضي الله عنه : أنه ﷺ قال :

« إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا
أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ،
وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ
بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ » .

وفي الصحيحين من حديث أنس قال : خطبنا رسول الله ﷺ
خطبة ما سمعت مثلها قط كان مما قال :

« لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا »

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٣) ، والترمذي في كتاب الزهد ، باب في قول النبي ﷺ : « لَوْ
تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا » رقم (٢٣١٢) : وقال : « هذا حديث حسن غريب » ،
وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء رقم (٤١٩٠) ، والحاكم في المستدرک
(٢/ ٥١٠) ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عنه الذهبي . قلت : فيه
إبراهيم بن مهاجر مختلف فيه . سبق تخريجه .

قَالَ : قَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ ، قَالَ : غَطُّوا
رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنْيْنٌ ^(١) .

أي : لهم بكاء بصوت مكتوم ، وهذا هو الفرق بيننا وبين أصحاب
نبينا ﷺ ؛ لأنهم امتلأت قلوبهم بحب الله والخشية منه .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والنسائي ^(٢) من حديث
عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - أنه قال : « رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
وَلِصَدْرِهِ أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ » - أي صوت الماء الذي يغلي .

فالمؤمن بالقدر يخشى الله عز وجل ويخشى مكر الله ويخشى الخاتمة ؛
لأنه لا يعلم ما الذي قُدِّرَ له وهو الذي يعلم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، ويعلم قول الله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ﴾ .

ويعلم الأحاديث الكثيرة التي رددناها مرارًا ونحن نتحدث عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ رقم
(٤٦٢١) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب توقيفه ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة
إليه رقم (٢٣٥٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب البكاء في الصلاة رقم (٩٠٤) ، والنسائي في كتاب
السهو ، باب البكاء في الصلاة رقم (١٢١٣) ، والترمذي في الشمائل ، باب ما جاء في بكاء
الرسول ﷺ رقم (٣٠٥) ، وأحمد في المسند (٤/ ٢٥ ، ٢٦) ، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه
للمسند : إسناده صحيح على شرط مسلم .

القدر ، فكل شيء قد قدر وفرغ الله تعالى منه يوم خلق القلم « وَقَالَ : اَكْتُبْ ، فَقَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اَكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وكما في صحيح مسلم ^(١) : « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

فالمؤمن بالقدر على وجل وخوف وحذر يدفعه دائماً إلى العمل حتى يلقي الله عز وجل وهو على طاعة .

لأن الحافظ ابن كثير ^(٢) - رحمه الله تعالى - يقول :

« لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه ، أن من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه » .

فالخواتيم ميراث السوابق ، فإن كانت السابقة حسنة ، كانت الخاتمة حسنة .

ولما نام الشافعي على فراش الموت قالوا : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟ كيف أصبحت ؟

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - رقم (٢٦٥٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥١٤) [سورة آل عمران ، آية : ١٠٢] .

فقال الشافعي الإمام : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان
مفارقاً ، ولعملي ملاقيًا ، ولكأس المنية شاربًا ، وعلى الله واردًا ، ولا
أدري أتصير روعي إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم قال :

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سُلمًا
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظمًا
وما زلت ذا عفوي عن الذنب لم تزل تجود وتعفو مِنَّةً وتكرما

فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالله والإيمان بقدر الله جل
وعلا ، أسأل الله أن يرزقنا خاتمة السعادة وألا يحرمنا الزيادة إنه على
كل شيء قدير .



الثمرة الثامنة

الثبات على الحق

المؤمن بالقدر الذي يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن كل شيء يحدث له إنما هو مكتوب ومقدور عليه ، فهذا رجل يواجه الشدائد والمصاعب والظلمة وأهل الباطل بقلب ثابت ، وبجنان لا يهتز ، ولا يخشى من أحد ؛ لأنه يعلم يقيناً أن رزقه ليس بيد أحد ، وأن ضره ونفعه ليس بيد أحد !!؟

والمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه قدر ، وأن أجله قدر ، وأن الضار النافع هو الله ، وأن القابض الباسط هو الله ، وأن المعز المذل هو الله ، وأن الخافض الرافع هو الله ، وأن أهل الأرض لو اجتمعوا على أن يضروه ما استطاعوا إلا إن كان الله قد قدر عليه هذا الضر ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوه لن يستطيعوا إلا إذا كان الله قد قدر له هذا النفع .

إذن فهو ثابت على المنهج ، ثابت على المبدأ ، ثابت على الحق ، لا يخشى الشدائد والصعاب ، ولا يخشى الظلمة على وجه الأرض وإنما يسير بخطاً ثابتة ، يبلغ دين الله ، ويبين منهج الله ، وهو يعلم علم

اليقين أنه لا يقدر أحد على ضره أو نفعه إلا بأمر الله رب العالمين .

هذا الإيمان هو الذي حوّل سحرة فرعون من فجرة أشقياء إلى بررة أولياء ، هذا الإيمان هو الذي حوّل سحرة فرعون من فجرة أشقياء يقولون : ﴿ بَعِزَّةَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] إلى بررة أتقياء ، يقولون لفرعون قولتهم الخالدة : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾

[طه: ٧٢]

هذا الإيمان هو الذي حوّل أصحاب النبي ﷺ من رعاة للإبل والغنم إلى سادة وقادة لجميع الدول والأمم ، كان أحدهم يقحم نفسه في الشدائد بل في قلب المعركة يبحث عن الشهادة لعلمه يقيناً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

كان أبو دجانة يترس على النبي ﷺ في أحد ويجعل ظهره حائطاً صيد منيع تتساقط عليه السهام والرماح وهو يعلم يقيناً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

هذا طلحة بن عبيد الله يقاتل بين يدي رسول الله ﷺ حتى قُطِعَتْ يَدُهُ وَشُلَّتْ يَمِينُهُ ، وهو يقول للمصطفى : نحري دون نحرك يا رسول الله .

هذا الإيمان هو الذي جعل حنظلة غسيل الملائكة يقوم من بين

أحضان عروسه ودفء فراشه ؛ ليلقى بنفسه في ساحة الوغي وميدان البطولة والشرف في الصفوف الأولى مع رسول الله ﷺ وهو يبحث عن الشهادة في سبيل الله .

هذا الإيمان هو الذي جعل العلماء الصادقين يبلغون دين الله بقلب ثابت وكلمات واضحة صادقة ، بحكمة بالغة وموعظة حسنة لا يخشون في الله لومة لائم ، بل لا يخشون إلا الله الذي يرزقهم وحده والذي يملك ضرهم ونفعهم وحده ، ومن ثم فهم يبلغون دين الله بقلب ثابت وبجنان لا يضطرب ولا يختل ، فهم لا يرغبون ولا يرهبون إلا الله . هذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

أعجب للإمام أحمد إمام أهل السنة - رحمه الله - الذي تعرض للبلاء والسجن فصبر صبراً مذهلاً ، وذهب إليه أهل العلم وطالبوه أن يفتي بأن القرآن مخلوق قال :

ومتى يعلم الناس الحق ؟ وصبر على الأذى فصار إماماً ، ووالله ما عرفت إمامته بهذه الصورة إلا بعد هذه المحنة والفتنة .

ومن أعجب ما قرأت : أن جُنْدَ الْحَجَّاجِ سَمِعُوا يوماً غلاماً صغيراً يسيء إلى الحججاج ، فقبضوا عليه وأحضروه بين يدي الحججاج وهو يجلس في مجلسه في أبهة وفخخة بين يدي وزراء ووجوه أهل العراق ،

فلما دخل الغلامُ ودفعه الجندُ دفعًا ، وقف بين يدي الحجاج وراح ينظر إلى مجلس الحجاج منبهراً ، ثم قرأ الغلام قول الله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ، ١٢٩] ، فكان الحجاج متكئاً فجلس ، وهؤلاء مع ظلمهم كانوا يجلون القرآن ، وكانوا إن ذكروا بالقرآن تذكروا ، بل وكانوا يحكمون بشريعة القرآن ، فلما سمع الحجاج قول الله : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿ استوى ثم نظر إلى الغلام وقال :

يا غلام ! إني أرى لك عقلاً وذهناً ، أحفظت القرآن !!؟

فقال الغلام : وهل خِفْتُ على القرآن من الضياع حتى أحفظه أنا ؟!

ففهم الحجاج أنه أخطأ السؤال ، فقال له : أفجمعت القرآن ؟

فقال الغلام : وهل كان القرآن مُفَرَّقاً لأجمعه أنا ؟

ففهم الحجاج أنه أخطأ السؤال ، فقال : أفاستظهرت القرآن ؟

قال : معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهري .

فقال الحجاج : قاتلك الله ! ماذا أقول ؟

قال الغلام : إن أردت أن تسأل عن هذا فقل : هل أوعيت القرآن

في صدرك ؟

فقال الحجاج : هل أوعيت القرآن في صدرك ؟

قال الغلام : كله والحمد لله .

قال الحجاج : اقرأ علىّ شيئاً منه ، فجلس الغلام وقال : أعوذ بالله

من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [النصر] .

ثم التفت إلى الحجاج وقال : كانوا يدخلون في دين الله أفواجًا على

عهد رسول الله ﷺ ، أما في عهدك فإنهم يخرجون أفواجًا يا حجاج .

(قال ^(١) : ويحك ، الويل لك ، ألا تعرف من تخاطب ؟

قال : أخاطب الحجاج بن يوسف .

فقال الحجاج لجلسائه : ما تقولون في هذا الغلام ؟

قالوا : اقتله فلقد خلع الطاعة وفارق الجماعة !!

فقال الغلام للحجاج : يا حجاج ، جُلَسَاءُ فرعونَ خيرٌ من

جلسائك .

(١) ما بين القوسين في تاريخ دمشق (١٢ / ١٧٩) .

قال : وكيف ؟

قال : لأن جلساء فرعون حين سأهم عن موسى وهارون قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف: ١١١] ، لكن جلساءك يقولون : اقتله ، وبذلك أكون قد أقمت عليك الحجة أمام الله .

فقال الحجاج : ما تقول في أمير المؤمنين ؟

فقال الغلام : رضي الله عن أبي الحسن .

قال : لا أقصد علياً - رضي الله عنه - إنما أقصد عبد الملك بن مروان . قال : عليه من الله ما يستحقه .

قال : ويحك ! ولم ؟

قال : لأنه أخطأ خطيئة كبيرة .

قال : وما هي ؟

قال : أن ولاك أنت على المسلمين لتستحل دماءهم وأموالهم .

فالتفت الحجاج إلى هذا الغلام الثابت وقال له : والله لقد عفوت عنك وأمرت لك بمائة ألف درهم لحسن توكلك على الله عز وجل .

فقال الغلام : العفو بيد الله لا بيدك ، والفضل لله لا لك ، ولا جمع الله بيني وبينك . ثم خرج .

وكم من مواقف لكثير من أهل الفضل وأهل الحق ممن يعلمون
 يقيناً أن دينهم أعلى من الدنيا ، فهم يبلغون الدين بحكمة بالغة
 وموعظة حسنة وكلمة رقيقة رقاقة ، ويعرفون متى يقولون وكيف
 يقولون ، ويعرفون الوقت المناسب ولا يداهنون أحداً ولا يفرطون
 في دينهم من أجل دنيا زائلة ، أو من أجل كرسي زائل ، إنما هم
 يتحركون بخطوات ثابتة ، وبمنهج واضح ، ولم لا ؟! وهم لا يقولون
 إلا قال الله وقال رسول الله ﷺ ؛ ولعلمهم يقيناً أن الأجل مقدر وأن
 الرزق مقدر ، وأن أهل الأرض لا يملكون لهم خيراً ولا نفعاً إلا بأمر
 من يدبر الكون كله جل وعلا .

الثمرة التاسعة

الإيمان بالقدر دواء لكثير من أمراض القلوب

من يؤمن بالقدر يحمل قلبًا نظيفًا طاهرًا من الغل والحقد والحسد والغش والضعينة لإخوانه ؛ لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقينًا أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله ، فهو يحب لأخيه النعمة ويضرع إلى الله سبحانه وتعالى الذي رزق أخاه أن يرزقه بها رزق أخاه فهذه كلها أمراض للقلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

قال ابن سيرين ^(١) - تدبروا هذه الكلمات الجميلة :

« ما حسدت أحدًا على شيء من أمور الدنيا ؛ لأنه إن كان - أي هذا الرجل - من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة ، وإن كان - هذا الرجل - من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا ، وهو يصبر إلى النار » .

فالحسد يحرق صاحبه ، والمحسود قد يُصاب بالعين إن كانت العين

(١) مختصر منهاج القاصدين (١٦٩) ط المنار .

خبیثة ؛ لأن النبی ﷺ يقول :

« إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ » ^(١) .

وفي صحيح مسلم ^(٢) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ ، سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » .

ويقول : « إِنَّ الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقَدَرَ » ^(٣) .

اللهم اكفنا شر الحاسدين والحاquدين ، فالحاسد والحاقد يحرق نفسه في الدنيا والآخرة .

إذا أنعم الله تبارك وتعالى على أخيك بنعمة فلك في هذه النعمة حالتان :

الأولى : أن تكره تلك النعمة وأن تحب زوالها وهذا هو الحسد المحرم .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب العين حق رقم (٥٧٤٠) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقمي رقم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقمي رقم (٤٢ / ٢١٨٨) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقمي (٢١٨٨) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٠ / ٧) ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٩ / ٢٤٤) ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٢٤٩) .

الثانية: ألا تكره وجودها وألا تحب زوالها لكنك تشتهي لنفسك هذه النعمة وهذه هي الغبطة ولا شيء فيها ولا حرج، فالنفس جبلت على حُبِّ الخير هذا أمر جبلي وفطري والحسد عدو النعم وبريد للملء القلب بالتسخط على قضاء الله وقدره؛ ففي الحديث الذي رواه أحمد والبخاري والبيهقي^(١) بسند جيد من حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه - قال ﷺ:

« دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ ، وَالْبَغْضَاءُ » .

وفي الصحيحين^(٢) أنه ﷺ قال :

« لَا تَبَاغُضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَقَاطَعُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٦٥، ١٦٧)، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٦ رقم (٢٥١٠)، والبخاري في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠)، وقال الهيثمي: «إسناده جيد»، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٢)، وصححه الشيخ ناصر في الإرواء (٣/ ٢٣٨) وضعف إسناده الشيخ أحمد شاكر والشيخ شعيب في المسند.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير رقم (٦٠٦٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير رقم (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك.

وأخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير رقم (٦٠٦٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، ونحوها رقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة.

«لَا تَبَاغُضُوا» أي : لا يبغض بعضكم بعضاً على أمور الدنيا لكن لو كان الأمر للدين والله فهذا ولاء لله ولرسوله وللمؤمنين وبراء من الشرك والمشركين

والنبي ﷺ يقول : « مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ ، وَأَعْطَى اللَّهَ ، وَمَنَعَ اللَّهَ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » ^(١).

«وَلَا تَقَاطَعُوا» يعني : لا تجعلوا القطيعة فيما بينكم ، فقطيعة الرحم من الكبائر. «وَلَا تَحَاسَدُوا» لا يحسد أحدكم أخاه على ما فيه من فضل ونعمة ، «وَلَا تَدَابَرُوا» أي : لا يعرض أحدكم عن أخيه كلما لقيه . «وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ، ولذلك أنا أقول دوماً : إذا وجدت إيماناً بلا أخوة فاعلم بأنه إيمان ناقص ، وإذا وجدت أخوة بلا إيمان فاعلم بأنها ليست أخوة ، وإنما هو التقاء مصالح وتبادل منافع إذا انتهت المصالح وزالت المنافع زالت الأخوة. نسأل الله أن يرزقنا الحب فيه وأن يجعلنا من المؤمنين المتآخين المتحابين إنه على كل شيء قدير .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم (٤٦٨١) ، وصححه الشيخ ناصر - رحمه الله - في الصحيحة (٣٨٠) .

أما الحديث المشهور في هذا الباب والذي يردده كثير من إخواننا من الدعاة والحديث رواه أبو داود ^(١) من حديث أبي هريرة وهو أن النبي ﷺ يقول :

« فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ».

هذا حديث ضعيف ؛ لأن في سنده عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف ، وفي سنده أيضًا رجل مجهول فالحديث ضعيف .

فالحسد والحقد والضغينة والغل وكثير من أمراض القلب لا تذهب إلا بالإيمان بالقدر ، فإن آمنت وتذوقت حلاوة الإيمان بالقدر ذهبت عنك هذه الأمراض ، ففرق كبير جدًا بين نقل الكلمات وبين تذوق الكلمات والعيش بهذه الكلمات .

يعني : لا تظن أنك بهذه الكلمات أصبحت مؤمنًا بالقدر لا ، لا ، لا بد أن تحول هذه المعاني في حياتك إلى واقع ؛ لتشعر بلذة الإيمان بهذه الثمرات ، لا بد أن تجاهد نفسك ، وأن تستعين بربك ، وأن تؤمن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في الحسد رقم (٤٩٠٣) ، وعبد بن حميد في المنتخب من المسند (١٥٣، ١٥٤) من حديث أبي هريرة . وفي إسناده جد إبراهيم بن أبي أسيد وهو مجهول ؛ لأنه لم يسم . ورواه البخاري في التاريخ رقم (٨٧٦) ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الحسد رقم (٤٢١٠) ، من حديث أنس ، وفيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف . وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن أبي داود وابن ماجه وضعيف الجامع (٢١٩٧) .

بالقدر ، وأن تُقنَعَ قلبك وعقلك أن الذي أعطى فلاناً هو الله وأعطاه بحكمة وحكمة ، فإن آمنت بأن المعطي هو الله رضيت وسلمت ، ورجوت الله الذي أنعم على أخيك أن ينعم عليك .

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية لكثير من أمراض القلوب من الحقد والحسد والغل والضغائن والبغضاء والعداوة والتدابير إلى آخر ذلك .

وعلاج الحسد - كما قال الإمام المقدسي - رحمه الله ^(١) :

«بالرضى بالقضاء والقدر ، وتارة بالزهد في الدنيا ، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته » يعني : إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاكمة حاسدة أو إلى أفعال حاكمة حاسدة لا يضره ما تحدث به النفس أحياناً ، فالنفس قد جبلت على مثل هذا .

أما الذي يصل به الحقد والحسد إلى أن يحقد ويحسد عالماً من العلماء على علمه ، فهذا أمر لا تقع فيه إلا النفوس الكافرة الخبيثة ، يعني النفس مجبولة على أنها تحسد في أمر من أمور الدنيا ، لكن تصل النفس

(١) مختصر منهاج القاصدين (١٣٩، ١٧٠) .

الخبیثة إلى الحسد للعلم أو للنبوة ، فهذا لا يقع فيه إلا النفوس الشريرة الكافرة والخبیثة .

قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَهُمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۚ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ [النساء: ٥٤] .

فالمشركون حسدوا النبي ﷺ على ما آتاه الله من نعمة النبوة بعدما علموا أنه من العرب ليس من جنسهم فهذه طبائع اليهود وطبائع المشركين والعياذ بالله .

قال : « فأما من يحسد نبياً على نبوته أو عالماً على علمه فيؤثر ألا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة » ^(١) .

يعني : لما يتمنى رجل زوال العلم من عالم ، فهذا لا تجبل النفوس السوية على مثله ، بل لا تتناول إلى هذا الشر إلا النفوس الكافرة أو

(١) المصدر السابق .

الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه من الدعاة فإنه لا يَأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم من علم ، بل أحب الارتفاع عنهم ؛ ليزيد حظه عند ربه ، وليس عند الناس ، وهذه مسألة أيضًا دقيقة جدًا ، فإن كان يزيد من أجل الثناء ومن أجل الوجاهة والجاه والرياسة والشهرة ، فهذا هو الرياء الذي لا يقبله الله عز وجل .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .

والحسدُ من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل .

فاعلم أيها الحبيب أن كل شيء بقدر الله ، وأن كل رزق بتقدير الله ، وأن كل نعمة بفضل الله عز وجل وتقديره ، فلا تحقد ولا تحسد ، وسل الله عزَّ وجلَّ الذي أنعم على إخوانك أن ينعم عليك من فضله والله ذو الفضل العظيم .

واعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمة .

فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغني ، ولو أفقره الله لأفسده ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغناه الله لأفسده ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة ، ولو أسقمه الله لأفسد

ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ، ولو صح لأفسده ذلك .

فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة ، فالله هو
الحكيم الخبير ، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها ، فالله جل وعلا يقدر
بحكمة وعلم .



الثمرة العاشرة

الصدق والوضوح

المؤمن بالقدر صادق مع ربه ، ومع نفسه ومع الناس ، وواضح لا يعرف المداهنة ، ولا يعرف النفاق ، ولا يعرف اللف ولا الدوران ، فالإنسان بطبعه اجتماعي لا يعرف أن يعيش وحده جُبِلَ على أن يعيش مع الناس ، إمّا أن ينهج مع الناس في التعامل قولاً وعملاً منهجاً واضحاً صادقاً ، وإما أن يعيش ملتوياً منافقاً مرئياً مداهناً لا يجيد إلا اللف والخداع والكذب والدوران ، هذان صنفان موجودان بين الناس صنف صادق واضح وصنف مخادع مضلل ، فالفرق الأول هو الذي يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن كل شيء بتقدير الله عز وجل ؛ لذا ، فهو يعامل الناس ، بمنتهى الصدق والوضوح ، لا يداهن أحداً ، ولا ينافق أحداً ؛ لأنه يعلم أن أمره بيد الله .

وصنف آخر لم يحقق الإيمان بالقدر يخشى هذا ، بل يظن أن رزقه بيد واحد من البشر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا يقدر أصلاً على أن يرزق نفسه فضلاً عن غيره ، فهذا الصنف لا يجيد إلا التملق

والمداهنة والنفاق ولا يجيد إلا اللف والدوران ، ولا يعرف الصدق ولا يجيد الوضوح ؛ لأنه لم يذق ثمرة الإيمان بالقدر لو يعلم أن رزقه وأجله وسعادته وشقاوته وأمره كله قد قُدِّرَ وهو في بطن أمه ، وربما سمع ذلك لكنه لم يحقق ذلك قولاً واعتقاداً وعملاً .

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر : الصدق والوضوح والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى وعلى منهج رسول الله ﷺ ؛ فإيمانه بالقدر يورثه ذلك ، ولا يحسن أن يعيش إلا بهذا ، فتراه إن كذب مرة يحتقر نفسه ، وتراه إن خدع أخاً من إخوانه مرة لا يحسن أن ينام ؛ لأنه دائم المحاسبة وهذا هو المؤمن .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الإيمان بالقدر ، وأن يذيقنا حلاوة مغفرته وبرد عفوه ، وأن يرزقنا الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا ، وأن يحسن نيّتنا وأعمالنا ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة ، وألا يجرمنا الزيادة إنه ولي ذلك ومولاه .

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم





فهرس الأحاديث

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟	٢٩
أَجَعَلْتَنِي لله نَدَا؟! بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ	٨٨ ، ٨٧
أَجَعَلْتَنِي وَالله عَدَلًا؟! بَلْ مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ	٨٨
اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَام - عِنْدَ رَبِّهِمَا	٦٧ ، ١٨٩ ، ١٩١
اِحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِزْ بِالله وَلَا تَعْجِزْ	٢٣٠ ، ١٨٨
أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا : حَيْفَ الْأَيُّمَةِ	١١٢
أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي خَصْلَتَيْنِ	١١٣
آخِرَ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ أُمَّتِي	١١٣
إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا	٣١
إِذَا رَأَيْتُمُ الْهَلَالَ فَصُومُوا	٤٠
إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ	١٧٨
إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ الله إِلَيْهَا مَلَكًا	

الحدث	الصفحة
فَصَوَّرَهَا	٧٦
أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْذِبُونَ فِيهِ	٥٩
أَرْبَعَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : عَاقٌّ ، وَمُذْمِنٌ ، وَكَاهِنٌ ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ	١١٥
اسْتَوْوَا حَتَّى أَثْنِيَ عَلَى رَبِّي	٩٢
اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ	٨٤
أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ	١٥٣
اعْمَلُوا فِكْلٌ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ	٢٠٨ ، ١٨١
أما السابق بالخيرات فقوم سبقوا وشهد لهم رسول الله بالجنة	١٥٥
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي	٢٤٩
أَنْ يَغْفَرَ ذَنْبًا ، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا ، وَيَرْفَعُ قَوْمًا ، وَيَضَعُ آخَرِينَ	٧٩ ، ٧٨
أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً	٢٥٦

الحديث	الصفحة
أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ	٢٥٥، ٥٨
أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ	٢٣٦
إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا	٧٥
إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ	١٠٦
إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمْنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ	٥٦، ٥٥
إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ ...	٢٥٥
إِنَّ الْعَيْنَ تَدْخُلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ	٢٦٩
إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ	٢٦٩
إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَزْهَقَ أَبُوهُ طُغْيَانًا وَكُفْرًا	٥٤
إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتُهُ	٩٠
إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخُلُقَ مِنْ ظَهْرِهِ	٧٣
إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٍ	٧٥

الحديث

الصفحة

- إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا
مَحَالَه ٦١
- إِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَزَالُ مُقَارِبًا حَتَّى يَتَكَلَّمُوا فِي
الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ ١١٣
- إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ٦٨ ، ٢٠٨ ،
٢٥٩
- إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ٨٥ ، ١٨٤ ،
٢٥٣
- إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ٢٥٧
- أَوْ لَا تَدْرِينَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ النَّارَ ٥٥
- الْإِيمَانُ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ٤٤
- الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ١٠
- بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ٨٦
- بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ١١٨

الحديث الصفحة

- تَذَرُونَ مَا هَذَا الْكِتَابَانِ؟ ٦٣
- تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا ٨٦
- تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ ٥٧
- ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ٢٢٢
- ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ... ١١٥
- خَلَقَ اللَّهُ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِنًا ٥٤
- دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ ، وَالْبَغْضَاءُ ٢٧٠
- دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ : « اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ » ٦٥
- سَتَكُونُ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ٢٥٤
- عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ٢١٩
- عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ٢١٨
- فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ ٤٠
- فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ٢٧٢

الصفحة

الحديث

- فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ
الْجَنَّةِ ٢٥٤
- قَدْ سَأَلَتِ اللَّهِ لَا جَالَ مَضْرُوبَةٍ ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ٦٨
- الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُهُمْ ... ١١٤
- كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ ٦٦ ، ١٠٤ ،
وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٢٥٩ ، ٢٠٦
- كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ ٤٥
- كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ٢٤٠
- كُلُّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ - أَوْ - لِمَا يُسَّرُّ لَهُ ٥٣
- لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا
أَعْطَيْتَ ٩٥
- لَا بَلَّ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ ٢٠٨
- لَا تَبَاغُضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ٢٧٠
- لَا تَسْأَلِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا
وَلْتَنْكِحَ ٧٠

الصفحة

الحديث

- لَا عَذْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةً ١٧٨
لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ
وَوَلَدِهِ ٢٢٢
لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ٤٥
لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ٤٤
لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي ١٥٦
لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ٨٦
لَا يُورَدُ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصِحٍّ ١٧٩
لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ ١١٤
لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى
يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ٢٠٩
اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ٩٤
لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ ٢٤٣، ٢٤١
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ٥٢، ٥١
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ

الحديث	الصفحة
--------	--------

نُورِهِ ٧٣ ، ٦٢

لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ ١١٨

لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ٢٥٧

مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ،

وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » ١٠٣

مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ٥٢

مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، مَا مِنْ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ

اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ٦٠

مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ .

فَقَالَ : « مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ ؟ » ١٧٩

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى

هَذَا الرَّجُلِ ٥٣

مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ ، وَأَعْطَى اللَّهَ ٢٧١

مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ٢٢٤

مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ ٢٢٦ ، ٥٧

الحديث	الصفحة
من كان مُسْتَتًّا فليستَنَّ بمن قد مات	٢٨
مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي	٦٨
مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ	٨٨
الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ وَالْمَعْتُوهُ وَالْمَوْلُودُ	٦٢
هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ	٢٤٦
وَاللهُ لَوْ لَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا	٩٦
وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ	٢١٨، ٢١٦
وَفِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ	١٧٩
وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ	١٥٥
يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْبَنِ اللهِ ثَالِثُهُمَا	٢٣٥
يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ: لَا الْقَدَرِ، قَالَ :	
يَا بُنَيَّ، أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟	١١٥
يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ، فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَر	٦٩

الحديث

الصفحة

يَا غُلَامُ ، إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ٦١ ، ٢٠٧ ،
٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٤٧

يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ٢٣١
يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ ٢٥٣
يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ
كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ٧٢
يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ ٦



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
مقدمة الطبعة الثانية	١٣
مقدمة مهمة في الإيمان بالقدر	١٥
كلام الإمام ابن القيم في مسائل القضاء والقدر	١٥
كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مذهب أهل السنن والجماعة ..	١٩
كلام الإمام أبو بكر الآجري في مذهبهم في القدر	٢٠
بعض القواعد والأصول المهمة	٢٢
الأصل الأول : وجوب الإيمان بالقدر	٢٢
الأصل الثاني : وجوب الاعتماد على الكتاب والسنة	٢٢
الأصل الثالث : البعد عن الخوض والتعمق في مسألة القدر ...	٢٦
الأصل الرابع : التزام الأدب مع الله بالاقتصار على ألفاظ القرآن	٢٧
معنى القضاء والقدر	٣٧
معنى القضاء في اللغة	٣٧
معنى القدر في اللغة	٣٩

الموضوع	الصفحة
المعنى الشرعي للقضاء والقدر	٤٠
الرأي الراجح	٤٢
الأدلة القرآنية والنبوية على وجوب الإيمان بالقدر	٤٢
أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر	٤٢
الأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر	٤٤
مراتب الإيمان بالقدر	٤٩
المرتبة الأولى : مرتبة العلم	٤٩
المرتبة الثانية : الكتابة	٦٤
تقادير المرتبة الثانية	٦٤
التقدير الأول: التقدير الأزلي قبل خلق السموات والأرض	٦٤
التقدير الثاني : تقدير يوم الميثاق	٧٠
التقدير الثالث : التقدير العمري	٧٤
التقدير الرابع : التقدير الحولي	٧٦
التقدير الخامس : التقدير اليومي	٧٧
المرتبة الثالثة : مرتبة الإرادة والمشئمة	٨١
المرتبة الرابعة : مرتبة الخلق	٨٩

الموضوع	الصفحة
مذاهب الناس في القضاء والقدر	١٠١
الفريق الأول : أهل الحق والهدى	١٠١
الفريق الثاني : أهل الضلال	١٠١
الحديث العمدة في هذا الباب	١٠٤
تفنيد الشبهات	١٢٥
أصلان مهمان قبل مناقشة أدلة الجبرية	١٢٦
الأصل الأول : الألفاظ التي استعملها الجبرية	١٢٦
الأصل الثاني : استدلالهم يؤكد سوء فهمهم	١٢٩
مناقشة أدلة الجبرية	١٣١
مناقشة أدلتهم من القرآن	١٣١
مناقشة أدلتهم العقلية	١٣٥
الاحتجاج بالقدر على ترك العمل	١٦٧
رد شيخ الإسلام على من احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي	١٦٩
استدلال البعض بحديث احتجاج آدم وموسى والرد عليهم ..	١٨٩
أنواع الإرادة في كتاب الله كما يرى علماء السلف	١٩٥

الموضوع	الصفحة
الإرادة الشرعية	١٩٥
الإرادة الشرعية الدينية	١٩٥
الإرادة الكونية القدرية ورأي الإمام ابن تيمية	١٩٦
ثمرات الإيمان بالقدر	٢٠٥
الثمرة الأولى : الرضا واليقين	٢٠٦
الثمرة الثانية : الاستغناء بالخالق عن الخلق	٢٢٣
الثمرة الثالثة : صدق الاستعانة بالله	٢٢٨
الثمرة الرابعة : صدق اعتماد القلب على الله	٢٣٣
أنواع المعية	٢٣٦
الثمرة الخامسة : دوام الذل والانكسار والافتقار إلى الله	٢٤٠
الثمرة السادسة : الصبر عند الشدائد والمصائب	٢٤٥
الثمرة السابعة : دوام الخوف والحذر	٢٥١
الثمرة الثامنة : الثبات على الحق	٢٦١
الثمرة التاسعة : الإيمان بالقدر دواء لكثير من أمراض القلوب	٢٦٨
الثمرة العاشرة : الصدق والوضوح	٢٧٧
فهرس الأحاديث	٢٨١
الفهرس	٢٩٣

